الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

التّصــوّر اللغــويّ عنـد الإمام فخر الدّين الرّازيّ

أمان سليمان حمدان أبو صالح

عميد كلية الدراسات العليا

بإشراف

الدكتور إسماعيــل العمايــرة

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٦/ ٧/ ١٩٩٥م وأجيزت

أعضاء اللجنة	التوقيع
١ - د . إسماعيل أحمد العمايرة/ مشرفًا .	
٢ - أ. د . نهاد ياسين الموسى/ عضوًا	
٣ - د محمد حسن عواد /عضوًا	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى أمّ فراس وفراس وطارق وإيناس
أملاً في أن تظلّوا على وعيٍ وبصيرةٍ
وأن تعملوا على وحدةِ هذه الأمّة ،
وأن تخدموا دينها الحنيف .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	جـ
المحتويات	د
الملخص	و
الفصل الأول	
ملامح العلاقة بين اللغة والفكر	
ـ المقدمة	٢
ـ التمهيد	٧
أ ـ ملامح شخصية الإمام فخر الدين الرازي	٨
ب ـ معالم مذهبه الكلامي	١٤
ـ اللغة والفكر	٢٠
أهم الاتجاهات في العلاقة بين اللغة والفكر	٢٣
لمحة عن تطور الدلالة وأثر البيئة والثقافة فيها	٣٣
اللغة والفكر عند الإمام فخر الدين الرازي	٣٦
الفصل الثاني	
اللفـــــظ والمعنـــــى	
اللفظ المفرد (الكلمة) والمعنى	٤٩
أ ـ الحقيقة والمجاز	٤٩
ب ـ الصوت والمعنى	٥٧
جـ ـ الاشتقاق	٥٩
د ـ الترادف	٦٣
ـ التركيب النحوي والمعنى (النظم)	٦٦
ـ السياق والمقام والمعنى	٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

أثر تصور الفخر الرازي للغة في مفاهيمة الكلامية

أ - اللغة ومفاهيم الفرق الإسلامية ٨٦
ب - التأويل عند الإمام الرازي ٩٥
جـ - ملامح تأثير التصور اللغوي للإمام فخر الدين الرازي على مفاهيمه ١٠٣
د - بعض ملامح تأثير اللغة على مفاهيمه الكلامية ١١٠

الخاتمة ١٢٧
المصادر والمراجع ١٣٢
Abstract ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخّص

التصور اللغوي عند الإمام فخر الدين الرازي

أمان سليمان حمدان أبو صالح

إشراف

الدكتـــــور إسماعيل العمايرة

هدفت هذه الرسالة إلى جلاء العلاقـة بيـن اللغـة والفكـر ، وتـأصيل العلاقـة بيـن اللفظ والمعنى ، وبيان معالم تصور الإمام فخر الدين الرازي للغة ، ومـن ثـم بيـان أثـر ذلك في مفاهيمه الكلامية ؛ بالمنهج الوصفي الاستقرائي مع التعليل والمقارنة . وتـألفت الرسالة من ثلاثة فصول ، وخاتمة .

الفصل الأول وهو بعنوان العلاقة بين اللغة والفكـر ، بحثـت فيـه آراء المـدارس المختلفة ورأي الفخر الرازي في العلاقة بين اللغة والفكـر واستنتجت أن الفخـر الـرازي كان يرى تلك العلاقة تلازمية تبادلية تكاملية .

والفصـل الثـاني وهـو بعنـوان اللفظ والمعنـى ، أصّلـت فيـه العلاقـة بيـن اللفـظ والمعنى وبحثت في الحقيقة والمجاز وبينت أن الفخر الرازي كان يرى وقوع المجاز في اللغة ، ولكنّه لم يكن يتوسع في المجاز توسع المعتزلة وابن جنّـي إذ كـان يـرى المجـاز ضرورةً حين لا تستطيع الحقيقة النهوض بالدلالة وحين تكون ثمّة قرائن تدل عليه ؛ وإلاّ فالحقيقة أولى كما بحثت في الصوت والمعنى وبينـت أنـه لـم يعـوّل علـى العلاقـة بيـن الصوت والمعنى ما عوّله ابن جني لأن الـرازي كـان يـرى العلاقـة بيـن الـدالّ ومدلولـه اعتباطية ، كما بحثت في الاشتقاق الأكبر وبيّنت أنه مـال إلـى أن الاشـتقاق الأكبر قليـل الوقوع في غير الثلاثي وليس مطلقا في الثلاثي .

وفي نطاق التركيب النحوي والمعنى (النظم) ؛ بحثت في العلاقة بين التركيب النحـوي والدلالـة ، والـتركيب النحـوي والبلاغـة ، والـتركيب النحـوي وإعجـاز القـرآن الكريم ، وبيّنت أن الفخر الرازي قد تابع نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم ، وأنه قد قام بمنهجة كتابَي الجرجاني : الدلائل والأسرار ، وطرح العلل المنطقية الدّالّة علـى موضوعاتهما ، وقام بتعميق نظرية النظم وتوسيعها لتشمل الفقرة ، والنص ، بل مجموعة النصوص ؛ كما هو حال سور القرآن الكريم ، التي اعتبرها وحدة واحدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك يلتقي وبعض الاتجاهات الحديثة الداعية إلى وحدة النص والقواعد النصيّة . كما أوضحت أن الرازي كان يرى ما ذهب إليه عبد القاهر من أن البلاغة تكون في النسق بين المنظومتين الفكرية واللغوية ؛ أي بين منظومة المعاني ومنظومة الألفاظ في الجملة العربية ، وأن ذلك هو مدار الإعجاز القرآني . كما بحثت في السياق والمقام والمعنى ، وأبرزت أن الفخر الرازي كان يرى الجملة العربية ودلالتها تتشكلان ضمن السياق اللفظي والمعنوي ، والمقام الاجتماعي والسياسي والثقافي .

والفصل الثالث وهو بعنوان أثر تصور الرازي للغة على مفاهيمه الكلامية : بيّنت فيه أهمية اللغة ودورها عند المتكلمين ، وعلماء أصول الفقه ، وأبرزت اهتمام الأشاعرة المتميز بها ؛ وخصوصا اهتمام الفخر الرازي بها ، وأوضحت أنه ذهب إلى أن الله لا يضمّن القرآن الكريم ما لا يفهم عند العرب ـ حقيقة أو مجازا ـ ، وأن المعوّل عليه في فهم النصّ القرآني هو ما تواضع عليه العرب في لغتهم ، وأن الدلالة الصحيحة في الألفاظ وفي التراكيب هي الدلالة التي تستقيم " على قانون اللغة " .

وبذلك كان الرازي يميل إلى الجمع الخلاّق بين العقل والنقل ، ولكنه لم يتوسع في العقل توسع المعتزلة . واعتبر النقل هو الأصل والأساس ، وأن الأصل عنده هو الأخذ بالحقيقة ما أمكن ذلك ، وأن المجاز عنده وبالتالي التأويل كان محددًا بحدود اللغة ، ولا يقوم إلاّ إذا كانت ثمة قرائن دالّة عليه . وبالتّالي أوّلَ الآيات المتشابهات في هذه الحدود ؛ رافضًا تأويلات الباطنية التي لا سند يسندها من اللغة ومقتضياتها .

وأخيرا : بحثت في أثر تصور الرازي للغة على مفاهيمه الكلامية ، وعرضت تفسيره للآيات القرآنية التي يظهر فيها هذا التأثير .

وفي الخاتمة : أوضحت النتائج التي توصل إليها البحث . وأبرزها : أن الرازي كان له تصوّر للغة يشكل معالم نظرية لغوية . وأن تأثير تصوّره للغة على مفاهيمه الكلامية كان واسعًا وعميقًا . وأن الاجتهادات في فهم النص الواحد ـ كنص القرآن الكريم مثلا ـ يمكن أن تتعدّد ، وعليه يمكن أن تتعدّد مفاهيم الفرق الإسلامية ؛ تبعًا لتعدُّد تصوراتها للغة . وأن هذا التعدّد يمكن أن يحمل على سعة النص القرآني ، المستندة إلى سعة اللغة . وأن الفرق التي استندت إلى اللغة ـ حقيقةً أو مجازًا ـ كان لها ما يبرر موقفها ، أما التي لم تستند إلى سعة اللغة ـ بحدود الحقيقة والمجاز ـ بل نظرت إلى الأوصاف الواردة في القرآن الكريم للذات الإلهية ؛ نظرتها إلى الأوصاف المتعلقة بالإنسان ، أو ذهبت بعيدًا في تأويلاتها الباطنية ؛ متحكمة في اللغة ، تحكمًا يتعارض وطبيعتها ، أن تلك الفرق قد جانبت الحق والصواب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

ملامح العلاقة بين اللغة والفكر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

الحمد لله ؛ الذي أنزل القرآن الكريم ، بلغة العرب ، وجعله منارة للمؤمنين وهدى للمتقين ، ومعجزة تحدى بها العالمين ، وحجة على الناس أجمعين ، إلى يوم الدين .

الحمد لله ؛ الذي خلق الإنسان ، علّمه البيان ، ووهبه عقلا مدركا وقلبا مبصرا ؛ يدرك بهما المؤمنون كنه الحياة ، ويخرجون من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية ؛ مستنيرين بنور القرآن ، ومهتدين بهديه .

والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين ؛ الذي بلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، وأرشد إلى سبيل الهداية فقال : (إن من البيان لسحرا) [١] وقال : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) [٢] فقرر دور البيان ومبلغ تأثيره ، كما قرر سعة النص القرآني وحمله لكثير مما كانت العرب تتخذه من وسائل واساليب في لغتها تتسع اتساع حياتها وتتنوع تنوع بيئاتها المكانية وتتطور تطور أحوالها الزمانية .

أما بعد ؛

فإن خير ما يتعلمه المرء ويعلمه ، كتاب الله . وكتاب الله لا تستجلى غوامضه ، ولا تستفتح مغالقه ، ولا يسبر غور حقائقه إلا باللغة العربية ، التي بها نزل ، والتي على أهلها وقع العبء الأول في حمله وتبليغه إلى الناس أجمعين .

ولقد كان مما رافق حمل الأمانة ، وأداء الرسالة ؛ أن تعددت اجتهادات المسلمين في وجه القصد من بعض آيات القرآن الكريم ؛ فحملها قوم على وجه ، وحملها آخرون على وجه آخر . وقد تفاعل ذلك مع تنوع شؤون الحياة وشجونها واختلاف المسلمين في أي السبل يتبعون لرعاية شؤون المسلمين بالشكل الذي يحقق مصالحهم في دينهم ودنياهم ، كما كان لانتشار الإسلام وتوزع المسلمين في أقطار شتى من الأرض واختلاطهم بأجناس وبيئات وثقافات ؛ بعضها أسلم وحمل معه بعض مظاهر ما كان عليه قبل الإسلام ، وبعضها الآخر بقي على دينه وثقافته ودخل في ذمة المسلمين . كان لذلك أثره في تعدد المذاهب والفرق

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر / صحيح الجامع - تحقيق الألباني رقم ٢٢١٦ .

(٢) رواه الإمام احمد في مسنده والترمذي في سننه عن أُبي ، كما رواه الإمام احمد في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه والحديث صحيح وهو عند الألباني برقم ١٤٩٥ في صحيح الجامع ، وللحديث روايات عديدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإسلامية وتنوعها ؛ تعدد ظروفها وأحوالها ، وتعدد فهمها للنص القرآني ، وكلّها موصول بالإسلام وبالقرآن الكريم بسبب ، وبلغة القرآن الكريم بحبل . فلقد عكفت الفرق الإسلامية كلها على لغة القرآن ، تستمد منها الأساس الذي استندت إليه في الذهاب إلى ما ذهبت إليه ، كما عكفت على لغة النص القرآني تقلبها على وجوهها باعتبار ذلك هو سندها الشرعي كي يكون موقفها ضمن السياق العام للإسلام والمسلمين .

وإذ أحمد الله أن آتاني شغفا بلغة القرآن الكريم ، وميلا إلى التعرف على آراء الفرق الإسلامية ؛ لما لذلك كله من صلة بالتناول المناسب ـ في نظري ـ للعقيدة الإسلامية وللشريعة المنبثقة عنها ، فلقد ظل هاجس العلاقة بين اللغة ومفاهيم الفرق الإسلامية في نفسي إلى أن قيض الله لي أن أجلس في مرحلة الماجستير في مجالس العلم التي يعقدها أساتذة الجامعة الأردنية الأفاضل ؛ الذين يجمعون بين العلم الغزير والأصالة المكينة والحداثة الواعية ، فاقتبست من نور علمهم وفضلهم قبسا أضاء لي بعض دروب نفسي المعتمة ، وقررت أن أجعل هذا الموضوع ميدانا لرسالة الماجستير .

وقد اخترت الإمام فخر الدين الرازي الذي توفي عام (٦٠٦ هـ) موضوعا لهذه الدراسة ؛ لأن الفخر الرازي اهتم باللغة من ناحية ، وهو متكلم أشعري ، من متكلمي أهل السنة والجماعة ، وشافعي المذهب ، من ناحية ثانية . وبذلك أردت أن أبحث في تصوره للّغة ومدى تأثير ذلك على مفاهيمه الكلامية ؛ وبذلك أكون وضعت اللبنة الأساسية لمعرفة تأثير التصور اللغوي عند الأشاعرة على مفاهيمهم الكلامية . ومن خلال مقارنته بغيره من علماء اللغة والمتكلمين وعلماء أصول الفقه ؛ أكون قد أرسيت أساسا لفكرة العلاقة بين تصور الفرق الإسلامية للغة ومفاهيمهم الكلامية .

وعندما طفقت أبحث عن الفخر الرازي ، وجدت أنه معروف كلاميا وفلسفيا أكثر مما هو معروف لغويا ، فأردت أن أبحث في معالم تصوره للغة . وقد ناقشت هذا الأمر مع الأستاذ الفاضل الدكتور إسماعيل العمايرة المشرف على هذه الرسالة ، فوجدت منه حسن رعاية وعناية أشكره عليها ما حييت ، كما أرشدني إلى الصعوبات التي يمكن أن تواجه مثل هذه الرسالة . وبالفعل ؛ فهذه الرسالة قد واجهت صعوبات جمة وأهم هذه الصعوبات أن هذا الموضوع يبحث لأول مرة ـ في حدود علمي ـ فهو لم يدرس من قبل ، بل أشير إليه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بإشارات ، وإن وجدت بعض الدراسات فهي تتعلق بعلماء أصول الفقه وليس بالمتكلمين كما هو حال هذه الرسالة .

وقد اطلعت على دراسة للدكتور سيد أحمد عبد الغفار بعنوان " التصور اللغوي عند الأصوليين " ، تتعلق بعلماء أصول الفقه دون ربط بمفاهيمهم . وإن تعلقت دراسة ما بالفرق الإسلامية فإنها لم تتعلق بالأشاعرة موضوع هذه الرسالة ، وإنما بفرقة باطنية كالإسماعيلية مثلا ، الذين كتب عنهم الدكتور محمد رياض العشيري كتابا بعنوان " التصور اللغوي عند الإسماعيلية " ، وهو دراسة في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي الإسماعيلي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

أما الكتب التي تحدثت عن الفخر الرازي من الجوانب اللغوية ، فمنها ما اقتصر على الجانب البلاغي ، ككتاب ماهر مهدي هلال الذي عنوانه : " فخر الدين الرازي بلاغيا " ، والذي جاء إعادة تركيب لكتاب الفخر الرازي " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " مع بعض التطبيقات البلاغية من التفسير الكبير . وهذا الكتاب لا يتعلق بالتصور اللغوي ، ولا يربط اللغة بمفاهيم الفرق الإسلامية ، فهو لا يتعلق بموضوع هذه الرسالة .

ومنها ما اقتصر على الجانب النحوي ككتاب طلال يحيى الطوبجي " الرازي النحوي من خلال تفسيره " ، وهو رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الموصل . وقد اقتصرت هذه الرسالة على الجانب النحوي ، ولم تَدْرس هذا الجانب كظاهرة لها علاقة بالربط بين اللغة والمفاهيم الكلامية ، بل إن مُعِدّها قد عاب على الرازي تأثره بالعقيدة في مباحثه النحوية وهو رأي مردود ، إذ التأثر دليل العلاقة المتبادلة بين التصور اللغوي والمفهوم الفكري .

كما أن ثمة أبحاثا تتعلق بالتصور اللغوي ولكنها لا تختص بالفخر الرازي ولا بالأشاعرة وبالتالي تختلف عن رسالتي هذه اختلافا بينا .

ومن بين الصعوبات التي واجهت هذه الرسالة أن آراء الفخر الرازي قد جاءت موزعة على عدد كبير من كتبه ، ولذلك ركزت الجهد في أربعة من كتبه ، تلك الكتب التي تركز على اللغة ، وهي :

١ - أساس التقديس في علم الكلام : وفيه رد على المشبهة والمجسمة حيث أوّلَ الآيات المتشابهات اعتمادا على المجاز في اللغة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : وهو منهجة وتبويب وضبط وتعميق لكتابَي الإمام عبد القاهر الجرجاني : " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " ، وهو الذي عمّق فيه الرازي ووسع نظرية النظم لتشمل الآيات والسور ، بل والقرآن الكريم كله ، وأثبت فيه أن إعجاز القرآن الكريم هو إعجاز لغوي يرجع إلى فصاحته المبنية على النظم .

٣ - المحصول في علم أصول الفقه : وفيه طرح الرازي الأساس اللغوي لأصول الفقه .

٤ - كتاب مفاتيح الغيب : المعروف باسم التفسير الكبير للقرآن الكريم ، والذي يتكون من اثنين وثلاثين جزءا يتجاوز عدد صفحاتها عشرة آلاف صفحة قمت بقراءتها كلها كي أتتبع موضوع هذه الرسالة .

وإذ تَبحث هذه الرسالة في التصور اللغوي ، فمن الطبيعي أن تكون بحثا في الأصول اللغوية وليس في الفروع ، وهي إذ تبحث في أثر التصور اللغوي على المفاهيم الفكرية ، فإنها تفسر مشكلة التباين في فهم النص الواحد وتعدد الاجتهادات عند الفرق الإسلامية التي تعدَّدَ فهمها لنص آيات كتاب الله الكريم تعدُّدَ تصورها لِلُغة مادة النص الشرعي .

ولذلك فهذه الرسالة تهدف إلى جلاء العلاقة بين اللغة والفكر ، وبيان أثر التصور اللغوي في تحديد مفهوم الأشاعرة عموما والفخر الرازي خصوصا ، وكذلك التأصيل للعلاقة بين اللفظ والمعنى عند الإمام فخر الدين الرازي ، وجلاء موضوع العلاقة بين العقل والنقل ؛ ووضع ذلك كله في إطار علم اللغة الحديث .

ولذلك كله ؛ قمت باستقراء ما طرح الإمام الرازي وتحليله ، ومن ثم إعادة تركيبه لاستنباط معالم تصوره للغة ، وفي الوقت نفسه قمت بتعليل بعض الظواهر اللغوية حيث يقتضي الأمر ذلك ، كما قمت بإجراء بعض المقارنات التي تفيد البحث ، وعلى هذا فمنهج البحث هو منهج متكامل يجمع بين الوصف والاستقراء من ناحية والتعليل والمقارنة من ناحية أخرى .

وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

ويشمل التمهيد ملامح شخصية الإمام فخر الدين الرازي ومعالم مذهبه الكلامي .

أما الفصل الأول فيشمل العلاقة بين اللغة والفكر والنظريات اللغوية الحديثة في ذلك ، والعلاقة بين اللغة والفكر عند الإمام فخر الدين الرازي .

أما الفصل الثاني فيشمل العلاقة بين اللفظ والمعنى ، اللفظ المفرد (الكلمة والمعنى) ، الصوت والمعنى ، الحقيقة والمجاز ، الترادف عند الفخر الرازي مقارنا إياه بعلماء اللغة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالمتكلمين وعلماء أصول الفقه ، وكذلك التركيب النحوي والمعنى ، نظرية النظم ، ونظرية السياق والمقام .

أما الفصل الثالث فيشمل أهمية اللغة ووظيفتها عند الفرق الإسلامية والتأويل اللغوي والباطني وأثر التصور اللغوي في مفاهيم الفخر الرازي العامة والكلامية .

وقد دعمت الفصول كلها بشواهد من أقوال الفخر الرازي ، وبتطبيقات من تفسيره الكبير للقرآن الكريم . أما الخاتمة فتشمل النتائج التي توصل اليها هذا البحث .

وأتبعت ذلك كله بثبت بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها مرتبة حسب الحرف الأول لاسم المؤلف ، إلا إذا كان مشتهرا بلقب معين أو كنية معينة فكنت أرتبه حسب الحرف الأول مما اشتهر به .

وفي نهاية هذه المقدمة أود أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى

الأستاذ الفاضل الدكتور إسماعيل العمايرة

الذي أشرف على هذه الرسالة وتابعها خطوة خطوة وفتح لي أبواب علمه وفضله وقلبه وبيته أيضًا .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين الكريمين :

الأستاذ الدكتور / نهاد ياسين الموسى

والدكتـــــور/ محمد حسن عـواد

على ما بذلا من جهد في قراءة هذه الرسالة وإبداء الملاحظات عليها ومناقشتها . وأشكر كل من ساهم بجهد في إنجاز هذه الرسالة وإخراجها ، وخصوصًا قسم اللغة العربية بالجامعة الأردنية ، ومكتبة الجامعة ، والأخ صالح البوريني الذي أخرج هذه الرسالة .

جزاهم الله - جميعًا - عني كل خير ، والله أسأل أن يكون ما نقول وما نفعل وما نكتب كله خالصًا لوجهه تعالى ، وأن ينفع به المسلمين ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عمان في ٥ شعبان ١٤١٥ هـ

الموافق ٦ كانون الثاني ١٩٩٥ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(أ) ملامح شخصية الإمام فخر الدين الرازي

يبدو من المفيد قبل التعرف إلى شخصية الإمام فخر الدين الرازي ، أن نلقي نظرة على الظروف التي كانت سائدة في القرن السادس الهجري ؛ الذي عاش فيه .

ومن المعروف أن هذا القرن قد شهد اشتداد الحملات الصليبية على ديار الإسلام ، كما شهد بدء التحركات المغولية على أطراف البلاد الإسلامية ، كما تعددت المراكز السياسية في ديار الإسلام . فإلى جانب الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، ظهرت دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، ودولة الغوريين . وكان الطابع العام للعلاقة بين المراكز المختلفة ، طابع الخلاف ؛ كذلك كان حال العلاقة بين أتباع الديانات والمذاهب والفرق الكلامية المختلفة (١) .

ولكن هذا القرن قد شهد - في الوقت نفسه - انتشارا واسعا للفلسفات ، وعلم الكلام ، وعلم أصول الفقه ، كما شهد انتشار العلوم الطبيعية والهندسية ؛ وخصوصا في مشرق العالم الإسلامي حيث ازدهرت العلوم العقلية " لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم " كما قال العلامة ابن خلدون في مقدمته (٢) .

---

(١) لمزيد من التوسع في تاريخ هذه المرحلة ؛ انظر : أبو شامة المقدسي شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، نشر وتحقيق محمد حلمي أحمد - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٦ .

ابن الأثير ؛ عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ ، دار صادر - بيروت - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م الجزء ١٢ .

النويري ؛ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق د . سعيد عاشور ، مراجعة محمد مصطفى زيادة والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ج ٢٧ ، مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

د . محمد حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الخوارزمية : نسبة إلى خوارزم ، بلاد خيرة تقع في اقليم الشرق ، قصبتها الجرجانية على نهر جيحون ، أسلم أهلها وفيها كثير من العلماء والفقهاء ، خربها التتار . وأصل البيت الخوارزمي من مماليك أحد أمراء الدولة السلجوقية (ياقوت الحموي معجم البلدان ، دار صادر - بيروت - ١٩٨٦ / ج٢ ص ٣٩٥ ، النويري / نهاية الأرب ١٩٧/٢٧) .

والغوريون : كانت دولتهم بخراسات استنجد خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزمية بدولة الخطا غير الإسلامية عليهم وتم القضاء عليهم ، كانوا مسلمين . (النويري / نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٢٠٩) .

(٢) ابن خلدون - عبد الرحمن - المقدمة - ط ٤ دار إحياء التراث العربي ص ٣٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم مما اتسم به هذا القرن من انقسامات ، إلا أنه يتميز بالمقابل ، بظهور محاولات جادة لإنهاض الأمة ، والعمل على توحيد صفوفها ، ومجاهدة أعدائها .

ومن بين هذه المحاولات الجادة ، كانت المحاولة المثمرة التي بدأها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ؛ وتوجها صلاح الدين الأيوبي بتوحيد مصر والشام ، وإعادة الدعوة للخليفة العباسي ؛ حفاظا على وحدة الأمة ، وبمجاهدة الصليبيين والانتصار عليهم في معركة حطين عام ٥٨٣ هـ ، وفتح القدس الشريف عقب هذا الانتصار .

وكما شهدت ديار الإسلام محاولات الوحدة والجهاد ؛ كذلك شهدت ساحة الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية جدلا متواصلا ؛ في محاولة لإثبات وجهة النظر ، ونقض وجهة النظر المقابلة .

وكان ثمة من علماء الكلام وعلماء أصول الفقه من حاول خلق مركز استقطاب يجذب الأنصار والأتباع ، ويبين خطأ المخالفين ويجادل عن الدين في مواجهة الفلاسفة والملحدين من جهة ، كما يجادل عن المذهب والاتجاه في مواجهة المذاهب ، والاتجاهات الأخرى .

وكان من بين أولئك النفر ؛ الإمام فخر الدين الرازيّ ، الذي عاصر صلاح الدين الأيوبي ، كما عاصر - في أواخر أيامه - الملك العادل أبا بكر بن أيوب ،أخا صلاح الدين ، وسنده ، والمتولي أمر المسلمين من بعده . وكان على صلة روحية - من خلال وعيه العام على الإسلام - بمركز السلطة السياسية للمسلمين ، أي بسلاطين بني أيوب > على الرغم من بعد دياره عن ديارهم وتباين الأقطار التي عاش فيها عن أقطارهم – حيث عاش في أقاصي بلاد المشرق ؛ في خراسان ، وخوارزم ، وبلاد ما وراء النهر ، وبلاد الري . وكان الذي جعله يرتبط بهم - حسب ما ورد في مقدمته لكتابه (أساس التقديس) ، الذي أهداه الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب - أن السلطان أبا بكر " يقوي الدين الحق والمذهب الصدق ، ويقوي الدين القويم ، وينصر الصراط المستقيم " (١) .

٤٤٦٦٢٤

---

(١) فخر الدين الرازي ، محمد بن عمر بن الحسين : أساس التقديس ، تحقيق الدكتور احمد حجازي السقا - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة / ص ١٠ ، ١١ .

وانظر : ابن تغريبردي ؛ جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغريبردي الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ -١٩٩٢ م ، ج٦ ص ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما كان على صلة وثيقة ومباشرة بالسلطان خوارزم شاه الذي كان من أبرز سلاطين الدولة الخوارزمية ومن السلاطين ذوي الجاه والنفوذ ، وكان الرازي مقربا منه ، وله عنده منزلة رفيعة جعلت السلطان يأتيه في مجلسه بخوارزم حيث كان مجلسه يشكل مركز استقطاب مهم . كما عاصر السلطان شهاب الدين الغوري صاحب غزنة ، وكانت له به علاقة وطيدة (١) .

وإذا كنا قد تعرفنا على بعض سمات القرن السادس الهجري وطبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الإمام فخر الدين الرازي وأهم سلاطين ذلك العصر ، فإنه من المفيد أن نتعرف على نسبه ومولده والمؤثرات التي أثرت فيه وأهم مصنفاته .

والإمام فخر الدين الرازي هو أبو عبد الله ؛ محمد بن عمر (الملقب بضياء الدين) بن الحسين ، بن الحسن ، بن علي ؛ ينتسب الى قبيلة قريش ، وإلى بطن تيم بالذات (وهو البطن الذي ينتسب اليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه) ولذلك عرف بالقرشي وبالبكري . وكان موطن أسرته الأصلي طبرستان ولكنه ولد في الري وإليها ينسب (٢) ، لقب ب فخر الدين ، وعرف ب (ابن الخطيب) (٣) ، وابن خطيب الرّي ، لأن أباه كان خطيبا هناك ، كما لقب ب أبي المعالي (٤) .

ولد في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين ، وقيل ثلاث وأربعين وخمسمئة ، وتوفي يوم الإثنين ، في عيد الفطر ، سنة ست وستمئة ، بمدينة

---

(١) انظر : ابن خلكان أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د . احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ، ج٤ ص ٢٥٠ . غزنة (غزنين) مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند (ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠١) .

(٢) طبرستان : بلدان واسعة كثيرة ، خرج من نواحيها ما لا يحصى من أهل العلم والأدب والفقه ، والغالب عليها الجبال ، وتعرف باسم مازندران ، كثيرة المياه والأشجار والفواكه ، مجاورة لجيلان وديلمان ، من أهم مدنها جرجان . (ياقوت الحموي / معجم البلدان ج ٤ ص ١٣) .

الرّي : مدينة من أمهات البلاد وأعيان المدن كثيرة الفواكه والخيرات . وهي قصبة بلاد الجبال . كان فيها شافعية وحنفية وشيعة وكانت الحروب قائمة بين المذاهب المختلفة ، حتى خربها التتار سنة ٦١٧ هـ (ياقوت الحموي / معجم البلدان ج ٣ ص ١١٦ - ١١٧) .

(٣) انظر : ابن خلكان / وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٤٩ .

وانظر : ابن خلدون / المقدمة ص ٤٥٨ .

(٤) انظر : ابن تغربردي / النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـراة (١) ، ودفن آخر النهار في الجبل المصاقب لقرية مزداخان (٢) ، وكان ذلك في السنة العاشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب (٣) .

تتلمذ على والده ضياء الدين عمر ، وكان والده من تلاميذ الإمام البغوي ، ثم تتلمذ على الكمال السمناني ، وعلى المجد الجيلي ، وقيل : إنه كان يحفظ كتاب الشامل لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني .

ويتصل شيوخه في علم الكلام إلى أن يصلوا إلى الإمام أبي الحسن الأشعري شيخ متكلمي أهل السنة والجماعة ، كما يتصل شيوخه في الفقه إلى أن يصلوا إلى الإمام الشافعي .

كان له تلاميذ ومريدون ؛ منهم فقهاء ومتكلمون . ومن تلاميذه : إبراهيم بن أبي بكر الصولي ؛ الذي أشار مترجمو حياة الرازي إلى أن الرازي قد تلا عليه وصيته (٤) .

وقد صنف الرازي عددا كبيرا من المصنفات ، في مواضيع شتى ، في علم الكلام وعلم أصول الفقه ، وفي اللغة وفي الفلسفة وفي الطب وغير ذلك ، فقد كان عالما موسوعيا ، وباحثا مدققا . وقد ذكر ابن خلكان وغيره من القدماء والمحدثين كثيرا من كتبه . ومن أهم كتبه التي تهمنا في هذا البحث :

---

(١) هراة : من أمهات مدن خراسان ، فيها بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة مملوءة بالعلماء وأهل الفضل والثراء ، جاءها الكفار من التتار ، فخربوها سنة ٦١٨ هـ (ياقوت الحموي / معجم البلدان ج ٥ ص ٣٦٩) .

(٢) مزداخان (وردت عند ياقون باسم المزدقان) : بليدة من نواحي الري معروفة أخرجت قوما من أهل العلم . وهي بين الري وساوة . (ياقوت الحموي - معجم البلدان ج ٥ ص ١٢١) .

(٣) انظر : ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٢ .
وانظر : السبكي ؛ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو - محمود محمد الطناحي - الطبعة الأولى - عيسى البابي الحلبي ، ج٨ ص ٩٢ .
وانظر : ابن تغربردي - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٥ .

(٤) انظر : ابن قاضي شهبة ؛ أبو بكر بن احمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين الدمشقي : طبقات الشافعية ، تحقيق د . الحافظ عبد العليم خان - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد والدكن - الهند . الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، ج٢ ص ٨١، ٨٢، ٨٣ ، (ذكره السبكي باسم ابراهيم بن أبي بكر الأصبهاني ، انظر : السبكي طبقات الشافعية ج ٨ ص /٨٧),

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ - **كتاب تأسيس التقديس ، أو أساس التقديس في علم الكلام** : وفيه يرد الرازي على المشبهة والمجسمة (وخصوصا الكرّامية مجسمة خراسان) في حين لا يرى رأي المعطلة . وهو يؤول الصفات الموهمة بالتشبيه والتجسيم معتمدا المجاز في اللغة .

٢ - **كتاب المحصول في علم أصول الفقه** : وقد ضبط فيه قواعد أصول الفقه ، وأفرد فيه فصلا للغة ؛ باعتبارها أصلا من الأصول المعتمدة في علم أصول الفقه .

٣ - **كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** : وهو امتداد ، وتبويب ، وتصنيف ، وإيجاز وتوضيح ومنهجة لكتابي الإمام عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، اللذين أورد فيهما الجرجاني نظرية " النظم " التي تربط البلاغة بالتركيب النحوي للجملة العربية ، تلك النظرية التي اعتبر الجرجاني ومن ثم الرازي الفكرة التي تقوم عليها هي مدار الإعجاز القرآني .

٤ - **كتاب مفاتيح الغيب** : المعروف بالتفسير الكبير للقرآن الكريم الذي جاء في اثنين وثلاثين جزءا والذي اعتمد فيه على اللغة وعلى منهج المتكلمين في البحث عن معاني الآيات القرآنية ، والذي رد فيه على آراء المعتزلة ؛ الذين بالغوا في الاعتماد على العقل مرتكزا على عمق العلاقة وتكاملها بين العقل والنقل (١) .

كان الإمام فخر الدين الرازي ذا منزلة علمية رفيعة فقد كان متقدما في علم الكلام ، وأحد أئمة الفقه ، وكان بارعا في مختلف العلوم والفنون (٢) ، كما كان صاحب مدرسة فكرية

---

(١) لمعرفة مزيد من كتب الفخر الرازي انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٤٩ .
وانظر : ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٨٣ ،
وكذلك الصفدي ؛ صلاح الدين خليل بن أيبك : الوافي بالوفيات ، الطبعة ٢ ، دار فرانز شتاينر - قرب بادن ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م . ج٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٦ ،
وانظر كذلك ، محمد صالح الزركان / فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ، دار الفكر - بيروت - ١٩٦٣ م . ص ٦٢ - ١٦٤ (قائمة مفصلة) .

(٢) انظر : ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٤٩ .
وانظر : السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٨ ص ٨٥ ، وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٢ ص ٨١ ، ٨٣ .
ابن تغربردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في العقيدة حيث كان له تصور معين للعقيدة ظل طيلة حياته منافحا عنه . وقد أثار تصوره هذا للعقيدة خصومات مع المخالفين من الفلاسفة والباطنية . وكذلك مع المشبهة والمعطلة في آن واحد . وقد كان دوما يلتزم حد التوسط بين الإفراط والتفريط وبين التشبيه والتنزيه وهو ما سمّاه الدين القويم والصراط المستقيم . وقد كان داعية يلتزم المذهب الشافعي من مذاهب أهل السنة والجماعة مع شيء من التصوف . كما كان متكلما يلتزم طريقة الأشاعرة (متكلمي أهل السنة والجماعة) أيضا مع شيء من التميز .

كان الرازي استمرارا - متميزا - للإمام الغزالي كما كان الأساس الذي ارتكز اليه الآمدي كما ارتكز إليه الإمام الإيجي في كتابه المواقف .

قيل : إن الإمام فخر الدين الرازي قد ندم على اشتغاله بعلم الكلام في أواخر أيامه ، وقد استند الذين قالوا بذلك إلى وصيته التي أملاها على تلميذه أبي بكر المشار إليه آنفا والتي ذكر فيها أنه وجد طريقة القرآن الكريم التي تميل إلى طرح المسائل دون تعقيد أجدى وأنفع .

والذي أظنه أن الوصية لا تدل على إنكاره لعلم الكلام ، بل تدل على مقصده من علم الكلام والذي لا يتعدى الوصول إلى الحقيقة ، حقيقة العقائد الإيمانية التي جاءت بها النصوص الشرعية ؛ ذلك أنه في الوصية نفسها يستخدم مناهج المتكلمين من ناحية وأنه لم يتوقف عن انتهاج طرق المتكلمين في كتبه من ناحية أخرى .

والذي يبدو لي أن الرازي أراد بوصيته رد علم الكلام إلى غايته الأساسية ؛ تلك الغاية التي إن أمكن تحقيقها دون تعمق ونظر فذلك أولى ، وإن لم يكن ذلك ممكنا فلا بد من التعمق والنظر والاستدلال ؛ أي أن الرازي أراد أن يعيد العلاقة بين العقل والنقل إلى حالتها الطبيعية . لقد صرح الرازي في وصيته أن طرق الفلاسفة والمتكلمين تكاد تكون عديمة الفائدة ، إذا قورنت بما جاء في القرآن الكريم (١) ، وهذا يعني أن القرآن الكريم ومنهجه هما الأصل عند الفخر الرازي وأن كل ما جاء به من آراء كلامية وفلسفية هو فرع على ذلك الأصل وفي خدمته أيضا .

كما كان الرازي أحيانا يعرض عن الدلائل العقلية في الوصول إلى معرفة الذات الإلهية والصفات ، ويطالب - على طريقة الصوفية - بأن تتجه إليه مباشرة راجين معرفته عن طريق الكشف والذوق (٢) .

---

(١) انظر : الزركان / الإمام فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ١٨٦ .

(٢) انظر : الزركان / الإمام فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كان الإمام الفخر الرازي - كما كان الإمام الغزالي - متأثرا بطرق الصوفية في المعرفة ، لكن دون إغراق في ذلك وبالقدر الذي يخدم فيه النص الشرعي ومعرفة ذات الله وصفاته دون باطنية .

لقد كتب الرازي كثيرا في الكلام وفي الفلسفة أيضا لكنه كان يريد بذلك تعزيز العقيدة والشريعة وهو ما صرّح به في وصيته ، ولقد كان من الذين ردّوا على الفلاسفة من متكلمي أهل السنة متابعا بذلك الإمام الغزالي (١) .

وبهذا أعاد الرازي الاعتبار إلى التصوف بمعناه المشار إليه سابقا ، وعلى الرغم من أن الرازي حاول إيجاد مصالحة مع الفلاسفة المسلمين في البداية إلا أنه انتهى إلى ما انتهى إليه الغزالي من عدم جدوى الفلسفة طريقا للمعرفة ومنهجا في الاستدلال ، وما زعمه بعض الفلاسفة المسلمين من توفيق بين الحكمة والشريعة (٢) ؛ إذ الشريعة عند الرازي هي الأصل والحكمة ينبغي أن تكون في خدمة الشريعة .

(ب) معالم مذهبه الكلامي

يمكن تعريف علم الكلام بأنه : العلم الذي يبحث في إثبات العقائد الإيمانية ؛ بأدلة عقلية (٣) .

وقد ظهر علم الكلام ، من الناحية السياسية والاجتماعية ، في سياق وظيفي يتعلق بالسلطة السياسية (الإمامة) ، كما يتعلق بأفعال العباد وخصوصا بالكبائر التي قد يرتكبها أناس يقفون على رأس السلطة السياسية ؛ ولكنه ظهر وتطور - من الناحية الفكرية - في سياق رسم ملامح العلاقة بين العقل والنقل .

---

(١) انظر : ابن خلدون / المقدمة ص ٤٥٨ ، وانظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٢) انظر : ابن رشد ؛ أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال - طبعة القاهرة - مكتبة صبيح .

(٣) انظر : ابن خلدون - المقدمة ص ٤٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا السياق ظهر المذهب الكلامي للإمام فخر الدين الرّازي ، الذي يعتبر امتدادا لمذهب الأشاعرة عموما منذ الإمام أبي الحسن الأشعري حتى الإمام الغزالي .

وقد ظهر مذهبه الكلامي في ثنايا كتبه ويمكننا أن نتعرف بإيجاز إلى أهم معالمه ؛ وسترد بعض تفصيلاته ، مدعمة بالشواهد من خلال هذه الدراسة إن شاء الله ، وهذه أهم معالمه :

١ - في ذات الله وصفاته :

يعتبر الإمام فخر الدين الرّازي أن وجود الله هو عين ماهيته ، وكان الرازي لا يتعمق في البحث عن ذات الله ، باعتبار ذلك من الأمور التي لا يمكن الوصول فيها إلى تصور قطعي .

أما صفات الله فإنها زائدة على الذات ، لا تقوم إلا بها وهو في ذلك يقول قول الأشاعرة .

وقد أوّل الصفات الخبرية كالوجه واليد والعلو والاستواء على العرش وما إلى ذلك ، وألّف في ذلك كتابه المعروف بأساس التقديس ، الذي ردّ فيه على المشبهة والمجسمة ، والتزم حد التوسط بين التشبيه والتعطيل .

قال الفخر الرّازي : " من توغل في التنزيه وقع في التعطيل ونفي الصفات ، ومن توغل في الإثبات وقع في التشبيه وإثبات الجسمية والمكان ، فهما طرفان معوجان . والصراط المستقيم : الإقرار الخالي عن التشبيه ، والتعطيل " [١] وهو بذلك يختلف مع المعتزلة الذين أغرقوا في التنزيه ونفي الصفات فيما عرف عندهم بمبدأ التوحيد . ومع المشبهة ، والحشوية ، والمجسمة ؛ وخصوصا الكرّامية ، مجسمة خراسان [٢] الذين أغرقوا في إثبات الصفات .

- ويمكن الرجوع إلى كتاب الأشعري ، أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري البصري :
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الأولى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م ، ج١ ، ج٢ .
وكذلك : محمد صالح الزركان - الإمام فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية .

(١) فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) انظر : عبد القاهر البغدادي / الفرق بين الفرق / ص ٩ . وانظر في الفرق المشبهة والمجسمة ؛ البغدادي : الفرق بين الفرق ٢١٤ - ٢١٩ . والكرّامية كانت تشبه إرادة الله بإرادة عباده : عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - مشكلة خلق العالم (الكون) :

يتفق الفخر الرازي في هذا وأغلب المتكلمين حيث يرى ما يرون أن العالم حادث وليس قديما ، وبالتالي فهو مخلوق وأنه قد خلق من العدم وليس من المادة الأزلية (القديمة) [١] .

٣ - مشكلة كلام الله (خلق القرآن وقدمه) :

يعتبر الأشاعرة ، ومنهم الفخر الرازي كلام الله (القرآن الكريم) على مستويين : الأول ، ويمثل المعاني القائمة بالنفس وقد سموها الكلام النفسي أو القائم بالنفس ، وهذا الكلام اعتبروه قديما ؛ والثاني : ويمثل هذه الأصوات والحروف الموجودة في ثنايا القرآن الكريم وقد اعتبروها محدثة .

وفي هذا اختلاف مع المعتزلة الذين يرون أن كلام الله محدث سواء أكان الكلام هو هذه الحروف والأصوات أم كان الكلام هو المعنى [٢] .

وكذلك يختلف مع الحنابلة ؛ الذين كانوا يرون كلام الله (القرآن الكريم) : قديما وليس مخلوقا .

٤ - مشكلة الجبر والاختيار:

يرى أهل السنة (ومنهم الأشاعرة) أنه لا موجد لأفعال الإنسان إلا الله تعالى وأن الإنسان يقرن بفعله عن طريق ما سمّوه بالكسب فالإرادة لله والفعل للعبد .

والفخر الرازي يرى أن العلاقة بين قضاء الله وفعل العبد تقوم على أساس التكامل قال : " من قال : إن فعل العبد كله منه ، فقد وقع في القدر ، ومن قال : لا فعل للعبد فقد وقع في الجبر ، وهما طرفان معوجان ، والصراط المستقيم : إثبات الفعل للعبد ، مع الإقرار بأن الكل بقضاء الله " [٣] ، وهو - كالأشاعرة - يختلف مع المعتزلة الذين يرون أن الإنسان مختار في أفعاله وموجد لها .

---

(١) انظر الزركان : فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ٣٣٤ .

(٢) انظر فخر الدين الرازي : التفسير الكبير / الجزء الثاني ص ٤٣ .

(٣) انظر فخر الدين الرازي : التفسير الكبير / الجزء الأول ص ١٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ترتب على مشكلة الجبر والاختيار عدد من المسائل الفرعية منها :

أ - فاعل الكبيرة :

وقد رأى الأشاعرة كما رأى المعتزلة أن المعصية أو الفسق لا توجب الكفر ، لأن صاحب الكبيرة عند الأشاعرة وعند الفخر الرازي مؤمن . في حين اعتبره المعتزلة في منزلة بين المنزلتين ، فهو ليس مؤمنا ، وليس كافرا ؛ أما الخوارج مثلا فقد اعتبروا كل معصية كفرا ؛ ولذلك اعتبروا فاعل الكبيرة كافرا (١) .

ب - تكليف ما لا يطاق :

المبدأ عند أهل السنة ، ومنهم الأشاعرة ، ويتفق معهم الفخر الرازي : جواز تكليف ما لا يطاق ؛ وذلك خلافا للمعتزلة الذين لا يجيزون ذلك انطلاقا من موقفهم في حرية الاختيار القائم على مبدأ العدل (٢) .

جـ - الوعد والوعيد :

المبدأ العام عند الأشاعرة ، ومنهم الفخر الرازي ، في وعيد فاعلي الكبائر : أن الله يعفو عن بعض المعاصي ، ويتوقفون في حق كل شخص على حدة ويرون أن الله إذا عذب أحدا فإنه لا يعذبه أبدا بل يقطع عذابه ؛ وهذا قول أكثر الصحابة ، والتابعين ، وأهل السنة والجماعة ، وأكثر الإمامية ، أما جمهور المعتزلة والخوارج فيرون الوعيد المؤبد ؛ انطلاقا من مبدأ الاختيار المطلق . في حين أن المرجئة يقطعون عموما بالعفو استنادا إلى مبدأ الجبر وأما في حق الشخص المعين فلا سبيل إلى القطع (٣) .

٥ - الحسن والقبح :

عند الأشاعرة أن الحسن والقبح شرعيان ؛ فالحسن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع .

لكن الفخر الرازي كان يرى أن الحسن والقبح نسبيان يتعلقان بالبيئة ، والظروف ، ولكن ليسا عقليين كما رأى المعتزلة (٤) .

---

(١) فخر الدين الرازي : التفسير الكبير / الجزء الثاني ص ٢٥٨ .

(٢) فخر الدين الرازي : التفسير الكبير / الجزء الثاني ص ٤٧ .

(٣) فخر الدين الرازي : التفسير الكبير / الجزء الثالث ص ١٥٣ .

(٤) انظر : الزركان / فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ٥١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦ - الإمامـــة :

يرى المتكلمون عموما أن الإمامة رياسة عامة في أمر الدين والدنيا ، خلافة عن النبي (ص) .

وهي عند الأشاعرة وأهل السنة عموما ، ليست من المسائل الاعتقادية بل هي أدخل في علوم الفقه منها في علم الكلام . ولكنها عند الشيعة من أصول الاعتقاد .

والإمامة عند الأشعرية (ومنهم الفخر الرازي) ، وكذلك أكثر المعتزلة : واجبة لإقامة الحدود ، ودرء المفاسد ، وحفظ الأمن والنظام . وتصح عن طريق البيعة ، كما تصح عن طريق التعيين ، أو النص ؛ بعكس الشيعة التي تراها واجبة على الله ، وأن الإمام ينص عليه من نبي ، أو إمام سابق ، وأن الإمام معصوم (١) .

وقد رد الفخر الرازي على القائلين بعصمة الأئمة بأن الآيات التي تشير إلى العصمة في القرآن الكريم ، تتعلق بالأنبياء (٢) .

---

(١) انظر : الماوردي ؛ ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي : الأحكام السلطانية ، عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م ، مطبعة السعادة ت مصر ص ٤ .

(٢) انظر : فخر الدين الرازي - التفسير الكبير ج ٤ ص ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة والفكر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة والفكر

يعتبر الإنسان من أسمى ما خلق الله على الأرض . لذلك اتجهت الفلسفات والشرائع والمذاهب إلى دراسته ، ومعرفة قدرته العقلية ، وحالته النفسية .

والدراسات اللغوية ، واحدة من الدراسات التي استهدفت - فيما استهدفت - التعرف إلى الإنسان ؛ من خلال التعرف إلى لغته .

ولقد يكون السؤال المهم عند علماء اللغة في عصرنا الراهن هو مدى إمكانية التعرف إلى طبيعة الإنسان وقدراته العقلية ، والنفسية ، ونشاطاته الفكرية والثقافية من خلال تحليل لغته .

ومن الواضح أن ذلك هو ما يمكن أن تضيفه الدراسات اللغوية الحديثة إلى العلوم الإنسانية وما يمكن أن تسهم فيه دراسة العلاقة بين اللغة والفكر .

وفي إطار بحثي هذا عن التصور اللغوي عند الإمام فخر الدين الرازي وعلاقة ذلك بمفاهيمه الكلامية ؛ تبدو معرفة العلاقة بين اللغة والفكر أساسا ومنطلقا لمعرفة الجوانب الأخرى من هذا الموضوع .

ويبدو من الطبيعي أن أشير إلى طبيعة تلك العلاقة ومظاهرها عموما ، وإلى مفهوم الإمام فخر الدين الرازي لها خصوصا . ولكن ليس من مهمة هذا البحث أن يُفصِّل في جوانب تلك العلاقة ؛ التي تتسم بالاتساع والعمق والتعقيد ، والتي أُلّفت فيها كتب عديدة [1] ، بل يكفي هذا البحث أن يضع في هذا الفصل تصورا أوليا ، قد يشكل أرضية يرتكز عليها الفصلان اللاحقان ؛ النظري ، والتطبيقي .

---

(١) انظر مثلا :

كتاب د . احمد حماد - العلاقة بين اللغة والفكر ١٩٨٥ م .

وكتاب د . عثمان أمين - في اللغة والفكر ، معهد البحوث والدراسات العربية - الجامعة العربية - القاهرة .

وكتاب د . نوري جعفر - اللغة والفكر - الرباط - مكتبة التومي ١٩٧١م .

وكتاب د . مصطفى منذور - اللغة بين العقل والمغامرة - منشأة المعارف بالإسكندرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كان مما حير علماء النفس والفلاسفة وعلماء اللغة في هذا السياق ؛ معرفة طبيعة كل من الفكر واللغة من ناحية ، ومعرفة طبيعة العلاقة التي تربط بينهما من ناحية أخرى . فلا أحد ينكر أن ثمة علاقة بين اللغة والفكر . لكن الخلاف يدور حول طبيعة هذه العلاقة ومداها ، وقد يكون مرد هذا الاختلاف أساسا يعود إلى طبيعة المفاهيم التي يستند إليها الدارسون في إطار نظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان .

وعلى أية حال فالذي يبدو أن علم تشريح المخ في العصر الحديث قد أثبت أن كلا من الفكر واللغة يتحكم فيه مركز تحكم موجود في الدماغ [١] .

كما أن كلا من الفكر واللغة يتأثر بهذا القدر أو ذاك بعوامل متقاربة منها ما هو اجتماعي ومنها ما هو ذاتي ويأتي تغليب أي من العاملين في ضوء المفاهيم التي يحملها المحلل لكل من الفكر واللغة ، فإذا كان ماديا [٢] سيركز على الجوانب الاجتماعية ، وإن لم يكن فسيركز على الجوانب الذاتية ، ولكن هذا وذاك لن يغير من حقيقة الأمر شيئا ، فالإنسان الذي يصدر عنه كل من الفكر واللغة مركب من مزيج متكامل من الوعي والمادة ، من الروح والجسد بحيث لا ينفصل أحد عنصري هذا المزيج عن الآخر ، بل تقوم بينهما في نطاق الإنسان والحيوان علاقة تبادلية ولا تستمر الحياة الإنسانية والحيوانية إلا بوجودهما معا .

من هنا يمكننا أن نتصور أن ثمة عناصر مشتركة بين الفكر واللغة ، لكن مصطلح الفكر مصطلح يشوبه كثير من التشويش ؛ ذلك أن مفهوم هذا المصطلح يتراوح بين التفكير البسيط والإدراك الذهني والعمليات العقلية المعقدة ، كما أن مفهومه قد يختلط أحيانا بالأحاسيس والمشاعر والعواطف بل وبالخيال أيضا . ومن البدهي أن تحديد مفهوم الفكر بمعزل عن هذه العوامل ضرب من الوهم . لكن المحاولات تجري لأيجاد مفهوم للفكر يجعله أقل ما يمكن تأثرا بتلك العوامل ، مفهوم يجعله يعبر عن العقل بما فيه من ضبط للمسائل ضمن قوانينه العامة .

واللغة هي أيضا مصطلح يتأثر بتلك العوامل جميعا . وإذا كانت اللغة أصواتا ، فإنه لابد من التفريق بينها وبين الأصوات الحيوانية بكون اللغة أصواتا إنسانية ذات نظام علامي رمزي تقوم على التقطيع وتهدف إلى التعبير أو التبليغ (التوصيل) أو التأثير أو إليها جميعا ؛

---

(١) انظر : د . نوري جعفر : اللغة والفكر ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) حول نظرة الاتجاه المادي : انظر : جورج بوليتز وجي بيس وموريس كافين - : أصول الفلسفة الماركسية ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ، ج ١ ص ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذ قد يشترك فيها المتكلم وحده ، أو المتكلم والسامع والمجال الطبيعي الذي يفصل بينهما وما يحيط بكل من هذه الأطراف من ظروف وأحوال ذاتية واجتماعية وبيئية وغيرها .

أهم الاتجاهات في العلاقة بين اللغة والفكر :

لذلك كله ظهرت اتجاهات متعددة ترى مدى العلاقة بين اللغة والفكر من زوايا مختلفة ، بعضها يرى اللغة ناقلا للفكر ، وبعضها الآخر يرى اللغة والفكر شيئا واحدا يتجلى على شكل لغة ، وثالث يرى تأثير اللغة في الفكر والفكر في اللغة .

والاختلاف بين هذه الاتجاهات يرجع إلى الاختلاف في فهم كل منها لطبيعة كل من اللغة والفكر ووظيفة كل منهما كذلك . ولكن هذه الاتجاهات جميعا تقرّ أن ثمة علاقة بين اللغة والفكر ولكنها تختلف في مدى هذه العلاقة ، كما أن الاتجاهين الأول والثالث كان لهما جذورهما في الماضي ، وبالتالي لا يقتصر هذان الاتجاهان على زمن دون آخر ولا على أمة دون أخرى ، لكن الاتجاه الذي ظل سائدا في القديم هو الاتجاه الذي يرى اللغة ناقلا للفكر . أما الاتجاه الذي يرى اللغة والفكر شيئا واحدا فلم يتبلور إلا في عصرنا الراهن مع تنامي الاتجاه الذي يسمى ب " الاتجاه العلمي " الذي قوي وازدهر تبعا لازدهار العلوم الطبيعية ذات الطابع التجريبي .

والاتجاه الثالث الذي يرى أن العلاقة تكاملية تبادلية بين اللغة والفكر فهو وإن كانت له إرهاصاته ، في القديم ؛ لكنه هو أيضا لم يتبلور على شكل مدرسة لغوية إلا في عصرنا الراهن . ولذلك فإن الذي يهمني في هذا البحث ليس تتبع هذه الاتجاهات في سياقها التاريخي الزماني ولا في أبعادها الإقليمية المكانية بل الذي يهمني هنا هو الإشارة إلى أهم ما انتهت إليه كل مدرسة في عصرنا الراهن كي يكون ذلك منطلقا ينطلق منه هذا البحث . ولذلك فسوف أجعل عنوان كل اتجاه الفكرة الأساسية التي يصدر عنها هذا الاتجاه أو ذاك .

١ - الاتجاه الأول : اللغة وعاء الفكر

يرى هذا الاتجاه أن كلا من اللغة والفكر مختلف عن الآخر في الطبيعة والوظيفة ؛ فالفكر هو الوعي المنفصل عن المادة ، واللغة بأصواتها المنطوقة ، وحروفها المكتوبة تحمل هذا الوعي أو الفكر وتنقله فهي وعاؤه ، ومثل العلاقة بين اللغة والفكر هو العلاقة بين الإناء والسائل الذي يحل فيه أو العلاقة بين الطائرة والركاب الذين يركبون فيها [١] .

كما أن اللغة نفسها عند هذا الاتجاه مكونة من جزأين : الأصوات المنطوقة ورموزها المكتوبة من جهة ، ومعناها أو الفكر الذي تعبر عنه من جهة أخرى . واللغة عندهم كالماء

---

(١) انظر : د . نوري جعفر - اللغة والفكر ص ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي يحلله الكيماوي إلى عنصريه الأكسجين والهيدروجين ، وكما يختلف الماء عن عنصريه ، تختلف اللغة عن عنصريها ؛ الأصوات والرموز المكتوبة ذات الطابع المادي المحسوس والمعاني أو الأفكار ذات الطابع غير المادي (١) .

والتجزئة التي تنادي بها هذه المدرسة تعزل الوظيفة الاجتماعية للغة (التوصيل) عن الوظيفة الفكرية (التعبير) كما تعزل اللفظ عن المعنى وعلم الأصوات عن علم المعاني . وقد كان مدار نظرة هذه المدرسة المقولة المشهورة التي تنادي بأن اللغة وعاء للفكر فهي تحمله لكنها لا تؤثر فيه ولا تتأثر به .

ومن الذين تبنوا هذه النظرة في عصرنا الراهن الفيلسوف الفرنسي بيرجسون (Bergson ١٨٥٩ - ١٩٤١ م) . ويبدو أن هذه المدرسة تنطلق من ثنائية ، تعزل الوعي عن المادة والروح عن الجسد ، وبالتالي تعزل الفكر عن اللغة ، والمعنى عن اللفظ ، وهذا العزل لا يعدو كونه عزلا افتراضيا متوهما لا يصمد أمام حقيقة الفكر واللغة ، والمعنى واللفظ ، لكن هذا العزل الافتراضي المتوهم ، ذو أثر كبير في المعالجات التي أجراها - أصحاب هذا العزل - للنصوص التي عالجوها وما توصلوا إليه من استنتاجات ومفاهيم ، كما قد يتبين لنا في الفصول اللاحقة ، إن شاء الله .

وقد أجرى بعض المهتمين بعلم النفس اللغوي تجارب دلت نتائجها على أن ما ذهبت إليه هذه المدرسة مخالف للواقع الملموس للتجارب العملية . ومن بين هذه التجارب تجربة قام بها جاكوبسون (Jackobson ١٩٣٢ م) حيث درس حركة العضلات أثناء التفكير بصمت فظهر من ذلك أن التيارات الكهربائية - كما يقيسها جهاز الكالفانوميتر تمر بالعضلات في الساعد الأيمن عندما يفكر المرء برفع الأثقال كما تمر بالأيسر عندما يفكر باستخدام يده اليسرى .

وهناك تجربة أخرى قام بها ماكس (Max ١٩٣٧ م) على التيارات الكهربائية التي تمر في سواعد الصم والبكم الذين يستعملون أيديهم للكلام في أثناء الأحلام فوجد أن التيارات الكهربائية تزداد حدة في أثناء الأحلام . وقد دلت إحدى الدراسات على أن العضلات في اللسان والحنجرة تتحرك فعلا في أثناء التفكير (Jackobson ١٩٣٢ م) (٢) ،

---

(١) انظر : د . نوري جعفر - اللغة والفكر ص ١٢٣ .

(٢) انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ، الجمهورية العراقية - وزارة التعليم العالي ص ١٨٨ - ١٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل ذلك دليل على أن العزل لا سند له من التجارب العملية التي أجريت على الانسان وفي نطاق دراسة الترابط بين التفكير والانفعالات النفسية الإنسانية وبين التفكير واللغة أيضا .

٢ - الاتجاه الثاني : اللغة والفكر شيء واحد

ينطلق هذا الاتجاه من أن الإنسان وبالتالي لغته جزء من الطبيعة أو المادة . وقد راجت أفكار هذا الاتجاه في سياق التقدم الكبير الذي شهدته العلوم الطبيعية في بداية هذا العصر ، ذلك التقدم الذي أثر على العلوم النفسية والاجتماعية فأخضعها للتجربة والكشف المخبري .

وأكثر من يمثل وجهة نظر هذه المدرسة في علم النفس (بافلوف Baflof) و (واتسون Watson) و (سكنر Skinner) الذين أنكروا دراسة الفكر لعدم قبولهم الاستبطان (التأمل) وسيلة لجمع البيانات في ميدان علم النفس لأن بافلوف يرى أن اللغة هي نظام اشتراطي يخضع لقوانين المنبه والاستجابة إلا أن مستواه أعلى من مستوى الاشتراط الحسي ولذلك أطلق عليه نظام الإشارة الثاني وهو نظام من الاستجابات المشروطة للتنبيهات اللغوية ؛ وهو محصور بالإنسان وحده ويقوم فيه التجريد والتعميم بدور كبير [١] وهو ينطلق من التعلم الشرطي لأن اللغة ـ عنده ـ نظام من أنظمة السلوك تحل فيه الكلمات محل الاقترانات . ويرى واطسون ـ مؤسس المدرسة السلوكية ـ أن من بين ما يميز الإنسان عن الحيوانات كثرة عاداته الحنجرية واللفظية وتعقيدها ودقتها .

فاللغة عند أرباب المدرسة السلوكية سلوك يخضع لقوانين السلوك عادة ويكتسبه الإنسان عن طريق الاشتراط كأي عادة .

فالكلام ـ حسب رأي السلوكيين ـ هو حركة في الرئيتين والحنجرة وباقي أعضاء الفم وهو يخضع لقوانين الحركة عموما .

أما الفكر فهم ينكرون وجوده المستقل عن اللغة ـ وهم لا ينكرون الفكر ولكنهم ينكرون التفسيرات الاستبطانية (التأملية) لما يسمى الفكر ، فالفكر عندهم هو لغة صامتة يتحدث بها المرء مع نفسه أو لغة خفية ، لا صوت فيها ، ومن أدلة هذه المدرسة على صحة وجهة نظرها أن الأطفال يفكرون بصوت عال ، ولكن الرقيب الاجتماعي هو الذي يجعلهم يخفضون أصواتهم تكيّفا مع متطلبات المجتمع من حولهم ؛ فينتقل كلامهم من الجهر الى الهمس ، ثم إلى الكلام الضمني [٢] .

---

[١] انظر د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ١٨٦ .

[٢] انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استدلت هذه المدرسة بالتجارب التي أشرت إليها سابقا على صحة وجهة نظرها وكذلك فإن (سكنر Skinner) لا يختلف رأيه عن رأي واطسون وبقية السلوكيين إذ يرى أن أبسط الحلول وأفضلها هو النظر إلى التفكير على أساس أنه سلوك ، فهو ليس عملية غامضة مسؤولة عن السلوك ، بل هو السلوك نفسه بكل تعقيداته (١) .

لقد كان منطلق منكري وجود فكر مستقل عن اللغة ما سمي " علمية اللغة " ، إذ اللغة عندهم تعتبر شيئا من الأشياء ، أي مادة قابلة للدرس العلمي كما تدرس العلوم الطبيعية والرياضية مستقلة عن العلوم العقلية والفلسفة والمنطق .

وقد بدأ هذا المنهج يدخل حقل العلوم اللغوية بقوة عندما شرع دو سيسير بوضع تصوراته للغة (٢) مستندا في ذلك إلى آراء عالم الاجتماع دوركايم . وعندما جاء بلومفيلد وسابير أصبح هؤلاء الثلاثة يشكلون ركائز هذا المنهج . وفي ضوء ذلك وجه البنيويون الشكليون التجريبيون نقدا عنيفا للنحو ولعلم اللغة اللذين يصدران عن تصورات عقلية يمثلها منهج أرسطو في المنطق ، كما ساندوا الاتجاهات الوصفية في اللغة ودعوا إلى دراسة اللغة من خلال الوصف لأنه المنهج القائم على العلم والتجربة في نظرهم ، ومن هنا ، جاء نقدهم للنحو ولعلم اللغة عند العرب الذي اتسم في بعض جوانبه بالتعليل المنطقي وبالمعيارية .

ومدرسة بلو مفيلد في اللغة مدرسة سلوكية تجريبية وصفية بنيوية تصف البنية اللغوية ، وتقوم على الاستقراء والتحليل وتهتم بلغة معينة وفي زمن معين لأن مثل هذه اللغة المعينة هي التي تكون قابلة للدرس العملي . وبما أنها تصف البنية فهي لا تهتم بالمتكلم ولا بالمتلقي ولا تقوم بتعليل (تفسير) الظواهر بل تدرس الظواهر مجردة وهي لا تهتم بالمنطق وترى أن الفكر يظهر على شكل لغة . وبالتالي فهي تقوم بتحليل اللغة من خلال مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية (٣) .

وقد عبر هنري لوفيفر عن رأي هذه المدرسة حين قال : " إن المعنى هو الشكل ، كما أن معرفة اللسان تجريبيا هي المعرفة بالفكر المتعلق بالصيغة اللسانية الشكلية ، لا التأملية الفلسفية (٤) .

---

(١) انظر : موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ١٨٩ .

(٢) انظر د . عبده الراجحي : النحو العربي والدرس الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م ، ص ٢٤ - ٤٣ .

(٣) انظر : د . ميشال زكريا - الألسنية التوليدية ت التحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية) ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ١٢ .

(٤) هنري لوفيفر : اللسان والمجتمع ، ترجمة د . مصطفى صالح ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٨٣ م ، ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا فإن مركز التأمل الفلسفي في نظره قد انتقل إلى مسائل اللسان ، وبالتالي أخذ على (جان بول سارتر) عدم إدراك هذا الانتقال الضروري وتمسكه بفلسفة الشعور وبالتفكير الديكارتي العقلي . ولسان حال هذا الاتجاه كما يطرحه هنري لوفيفر : " إن الفليلسوف والفلسفة كانا يبحثان لأنفسهما عن لسان ، أما الآن فيتصوران الفكر البشري في صورة لسان " (١) .

ومن الواضح أن هذه المدرسة تنزل اللغة إلى مستوى الطبيعة وتحاول أن تطبق قوانين الطبيعة عليها ، وأن تخضعها للتجربة العلمية . وهذا ما يتعارض وطبيعة اللغة التي تشكل نظاما علاميا يصدر عن الإنسان الذي يتكون من المادة والفكر ، من الجسد والروح ، فهو ليس مادة مطلقة ، وهو ليس روحا مطلقة ، واللغة ذاتها تحمل سمات هذا المزيج من خلال العلاقة التكاملية التبادلية بين الأصوات وعلاماتها اللفظية والكتابية والمعنى أو المضمون الذي تحمله والذي يتمحور حول الفكر ، وبالتالي فإن التجربة والكشف قد تنطبقان على المواد الموجودة في الطبيعة وقد تبينان بعض مظاهر السلوك الإنساني لكن تعقد السلوك الإنساني ، وخصوصا السلوك اللغوي يظهر مدى ما للاستبطان أو التأمل من دور في الكشف عن الحقائق المتعلقة بالإنسان ، وبلغته أيضا .

٣ - الاتجاه الثالث : العلاقة بين اللغة والفكر تبادلية

تنطلق هذه المدرسة من تبادلية العلاقة بين الوعي والمادة ، بين الروح والجسد ، ولذلك فإنها ترى أن لكل من الفكر واللغة وجودا خاصا ولكن العلاقة بينهما تبادلية ، ينتفي أحدهما بانتفاء الآخر ، ولا يقوم إلا بقيامه ، ويمثل هذه المدرسة في عصرنا الراهن عالم النفس السوفيتي (بايكوتيزكي Bykotizki ١٨٨٦ ـ ١٩٣٤ م) والفيلسوف الأمريكي (جون ديوي John Dewey ١٨٥٩ ـ ١٩٥٢ م) (٢) .

وقد أشارت هذه المدرسة إلى تأثير كل من اللغة في الفكر والفكر في اللغة . فاللغة وسيلة تجسيد الفكر ؛ فهي تعين الإنسان على تحسين فكره وبلورته وصوغه وتداوله ؛ ولولاها لاستحال ذلك . والفكر بدوره يعين اللغة على الدقة والضبط ويثريها بالمصطلحات وما إلى ذلك .

---

(١) هنري لوفيفر : اللسان والمجتمع ص ١٨ .

(٢) انظر : د . نوري جعفر : اللغة والفكر ص ١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أشارت إلى ظاهرة المعنى باعتبارها تعبيرا عن التلاحم العضوي بين الفكر والرمز الذي يشير اليه لفظا أو كتابة ، لأن المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد ؛ إذ الصوت الذي لا معنى له صوت أجوف مبهم ، لا يدخل حيز اللغة .

وقد اهتم جان بياجيه بالعلاقة بين اللغة والفكر من خلال الحديث عن نمو اللغة عند الطفل ، وقد أثبت من خلال أبحاثه وجود الصلة العضوية بينهما (١) . ومن تتبع لغة الطفل تبين أن الأطفال يبدأون اكتساب اللغة بأنفسهم نظرا لحاجتهم الفطرية إليها ثم يبدأ الكبار بمساعدتهم . وتتطور لغتهم في مجرى تطورهم الفكري وصلاتهم الاجتماعية وقدراتهم المعرفية . كما تبين أن الوسط الثقافي عامل رئيسي في تطور لغة الطفل .

وقد أشار بعض الدارسين إلى أن فكر الطفل في مرحلة نموه الأولى لا يرتبط باللغة وأن لغته هي أيضا لا ترتبط بالفكر (٢) نتيجة الفردية وعدم الشمول والميل إلى التجسيد . فالأشياء الكبيرة الحجم مثلا ترتبط بالقوة والثقل إذ لا يمكن للطفل أن يميز بين كبر الحجم وخفة الوزن ، كالكرة مثلا ، إلا بتوجيه من الكبار .

ولكن ذلك لم يمنع من اعتبار حالة الأطفال هذه ، متعلقة بالأداء وليس بالقدرة أو الكفاءة إذ القدرة على إنتاج اللغة موجودة عند الطفل بالفطرة . وللتدليل على ذلك لاحظ عالم اللغة (تشومسكي Chomsky) أن الأطفال في سن الخامسة يستطيعون أن ينطقوا كل يوم مئات الجمل التي لم ينطقوها من قبل ويستطيعون أن يفهموا ما يقال لهم من كلام لم يسبق أن سمعوه (٣) .

فالطفل يتدرج وينتقل من التعميم إلى التخصيص ومن التخصيص إلى التعميم ومن التجسيد إلى التجريد ومن التجريد إلى التجسيد بشكل مواز لتطور مستواه الفكري .

وإذا كان الفكر في رأي هذه المدرسة هو ظاهرة ثانوية بالمقارنة بالواقع الموضوعي الذي يعتبر ظاهرة أولية . فإن الفكر ليس معزولا عن الواقع الموضوعي ولكنه ليس انعكاسا له كانعكاس الصورة عن المرآة ، بل يتم عن طريق تمثل الحقيقة باجتماع عوامل عديدة منها

---

(١) انظر : جان بياجيه : اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة أحمد عزت راجح ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٦ .

(٢) انظر : د. نوري جعفر : اللغة والفكر ص ١٣٧ .

(٣) انظر : نوم تشومسكي : محاضرات ودن (تأملات في اللغة) ، ترجمة د . مرتضى جواد باقر ود : عبد الجبار محمد علي - دار الشؤون الثقافية بغداد - ١٩٩٠ ، ص ١٥ - ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما هو موضوعي ومنها ما هو ذاتي . وبما أن الحقيقة ليست متماثلة لأن الأوساط مختلفة غير متماثلة ، لذلك فإن هذه المدرسة ترى أن مفاهيم الإنسان وطريقته في التفكير يتأثران بخبراته في الحياة .

ومن الضروري أن نميز بين الجوانب الشكلية من جهة والمضمون من جهة أخرى كما يرى (بيلاييف Belyayef) [١] ، فالجوانب الشكلية تشمل المفاهيم والأحكام والاستنتاجات والمقارنات والتحليل وإعادة التركيب والتعميم وغيرها من العمليات العقلية ، وتلك لا تختلف كثيرا باختلاف المجتمعات . أما المضمون أو التفكير فيختلف باختلاف الظروف والمعطيات والخبرات . ومن هنا جاءت حيوية الترجمة التي تعتمد على مدى تمثل خبرات الشعوب التي تترجم لغتها . والتفكير يتم ضمن نظام معين من الرموز مثل نظام الرموز الرياضية أو الكيميائية أو اللغوية ، ومن الأدلة على تأثير اللغة في الفكر ما طرحه (ورف Wohrf) من أن اللغة نتاج للحضارة القومية فالعالم عنده يمر أمامنا كانطباعات متغيرة دائمة التحول وتقوم عقولنا بتنظيمها ويكون ذلك على الأغلب من خلال النظام اللغوي [٢] ، وهذا يعني أن الشعوب المختلفة التي تتكلم لغات مختلفة تدرك العالم وتفكر فيه بسبل مختلفة تنسجم مع لغاتها .

ومن الواضح أن هذه النظرية لها ما يؤيدها ، ولكنها لا يمكن أن تتخذ كنظرية مطردة تستقيم في كل الأحوال .

ومن التجارب التي تؤيد هذه النظرية التي تربط بين الفكر واللغة ـ وإن كان بشكل جزئي ـ تجربة قام بها (لوفيتز و بالمر Lofitsz and Palmer) ، وهي تعالج الإدراك والذاكرة أكثر مما تعالج الفكر ولكنها تشير إلى تأثير اللغة في الفكر ؛ فقد عرض الباحثان فيلما سينمائيا عن سيارتين تصطدمان على مجموعتين من الأشخاص وسألا أفراد المجموعة الأولى : ما تقديرك لسرعة السيارتين عندما ضربت إحداهما الأخرى ؟ بينما سألا المجموعة الثانية : ما تقديرك لسرعة السيارتين عندما هشمت إحداهما الأخرى ؟ ولم يكن هناك فارق بين السؤالين سوى الإيحاء اللفظي الذي تحدثه كلمة (هشمت) في الثانية . وقد وجد أن المجموعة الثانية قد بالغ أفرادها في تقدير السرعة تبعا للإيحاء اللفظي الناجم عن تأثير اللغة [٣] .

---

(١) انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٢) انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ١٩٤ .

(٣) انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ١٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سياق ظاهرة الإيحاء اللفظي أجريت تجربة على بعض الأشخاص حيث تناولوا أقداحا من الماء ولكن أوحى إليهم باللفظ وهم في حالة نوم جزئي أنها مملوءة بمادة أخرى مسكرة ؛ ولذلك بدت عليهم علامات الترنح ، كما أن طالبة عولجت بالإيحاء اللفظي استعادت ثقتها بنفسها وذهب عنها رعب شديد كانت تعاني منه (١) .

وقد أجرى (ورن Warren) وجماعته عدة دراسات (١٩٧٠ ، ١٩٧١) (٧٢ ، ٧٣) اكتشف فيها ظاهرة البناء الفونيمي حيث سجل على شريط صوتي جملة : اجتمع المحافظون في محافظاتهم مع مجالس الشعب ، وقد قام بقطع فونيم (س) من كلمة مجالس الكترونيا ، وسجل بدلا منه صوت (سعال) ثم سمع عشرون طالبا الشريط فقال ١٩ منهم : إنه لا يوجد نقص بينما أشار الطالب العشرون إلى نقص ولكن في فونيم آخر ، لم يجر عليه أي تغيير (٢) .

ويؤدي بناء الجملة والإطناب فيها دورًا في فهم اللغة . وكذلك تؤدي الذاكرة دورًا في فهم الجملة وكذلك تقدير ما يعرفه السامع عن الموضوع واستعمال الكلمات المناسبة استنادًا إلى ذلك . ومبدأ التعاون بين السامع والمتكلم يقوم على افتراض المتكلم أن سامعيه يتصورون أنه يتكلم عن حوادث وحقائق وحالات مفهومة . وكذلك يؤدي الموقف الاجتماعي والحالة النفسية والأدوات اللغوية المتوافرة دورا في تحديد معالم اللغة بحدود الفكر . ولذلك كله ترى المصاب بالعصاب يكرر حروفا وألفاظا وتعابير معينة ، وذلك لاضطراب العلاقة بين النظام الفكري والنظام اللغوي . وكذلك المصاب بالفصام الذي يميل إلى استبدال الأسماء بأسماء أخرى وتشبيهات ورموز يصعب على السامع فهمها إذ ترتفع مرونة الارتباطات اللغوية عند الفصامي ، وهذا شبيه بحالة شارب الكحول حين يتحدث (٣) .

وبعد أن تأملنا بعض التجارب التي تعزز فكرة الترابط بين الفكر واللغة أود أن أشير إلى الملامح التي تميز هذه المدرسة عن المدرسة السابقة كما أو د أن أشير إلى أهم آراء هذه المدرسة كما ظهرت في كتابات العالم اللغوي تشومسكي وكذلك في آراء مدرسة براغ اللغوية .

لقد كان موقف تشومسكي يقوم على استقراء البنية اللغوية وتحليلها ولكنه كان يختلف في ذلك عن المدرسة السابقة ، إذ كان يهتم بالمتكلم وقدراته العقلية التي تؤهله لمعرفة القواعد

---

(١) انظر : د . نوري جعفر : اللغة والفكر ص ١٥٣ .

(٢) انظر : د . نوري جعفر : اللغة والفكر ص ٢٠٢ .

(٣) انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ص ٢١٤ - ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العامة للغة ، ومدرسة تشومسكي تهتم بالمتلقي وهي تهتم باللغات عموما وليس بلغة معينة وهي تقوم بتعليل (تفسير) الظواهر وتهتم بالمنطق وترى أن ثمة لغة وثمة فكرا ولكن العلاقة بينهما تكاملية تلازمية تبادلية .

وتتقارب آراء تشومسكي مع الآراء الفلسفية العقلية الديكارتية التي طرحا الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠ م ، وكذلك مع آراء الألماني همبولد ومع مدرسة براغ اللغوية التي تقوم على أساس التحليل البنيوي الوظيفي للغة . وتعيد آراء تشومسكي الاعتبار للمنطق الأرسطي وللمعيارية في النحو العربي .

وهذه المدرسة تنطلق من علمية اللغة هي أيضا ، لكنها لا ترى الكشف والتجربة كافية لتحليل اللغة بل يقوم العقل والمنطق بدور كبير في تحليلها وتعليلها لأن هذه المدرسة ترى أن لدى الإنسان قدرة فطرية فعالة على تكوين اللغة وهذه القدرة أو الكفاءة اللغوية موجودة عند الناس جميعا دون تمييز بين أمة وأمة ولا بين زمان وزمان . ويختلف الناس في أدائهم اللغوي فقط تبعا لاختلاف ظروفهم وأحوالهم . ولذلك فهذه المدرسة تنطلق من منطلق أنساني النزعة ينطلق من منطلقات ديكارت العقلية التي تميز الانسان عن غيره من المخلوقات والذي يلتقي بدوره مع ما طرحه الإمام الغزالي في هذا المجال .

لذلك حاول تشومسكي ومؤيدوه إقامة قواعد عالمية عامة تنطلق من أن اللغات كلها تصدر في الأساس عن مصدر واحد وبالتالي يمكن أن توجد قواعد تنتظمها جميعًا . وفي نطاق العلاقة بين اللغة والفكر استنتج تشومسكي التحولات التي تطرأ على التراكيب اللغوية فيما سماه النحو التوليدي التحويلي والذي يجعل المرء قادرا على توليد عدد كبير من الجمل انطلاقا من جذر تركيبي واحد كما يتم تحويل البنى العميقة المعبرة عن المعنى الأساسي إلى بنى سطحية تعبر عن الأداء اللفظي الشكلي وكل ذلك في ضوء معيار محدد (١) .

---

(١) انظر : تشومسكي ؛ نوم تشومسكي - البنى النحوية ، ترجمة د . يؤيل يوسف عزيز - مراجعة مجيد الماشطة ، الطبعة الأولى . دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٧ م، ص ٣٦ - ٦٦ .

تشومسكي : محاضرات ورن (تأملات في اللغة) ص ٧٥ .

جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ، ترجمة وتعليق د . حلمي خليل ، الطبعة الأولى - دار المعرفة الجامعية ص٣٠ -٣٢.

وانظر د . مازن الوعر - قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، الطبعة الأولى دار طلاس ، دمشق١٩٨٨ .

د . عبد الراجحي : النحو العربي والدرس الحديث ص ١٢٤ .

د . ميشال زكريا : الألسنية ص ٣٢ - ٤٥ .

د . جعفر د: الباب : الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني (نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث) ، الطبعة الأولى - دمشق ، مطبعة الجليل ١٩٨٠ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من الأدلة الواضحة على تلازم الفكر واللغة إلا أن هناك بعض المظاهر الموهمة بعدم التلازم بينهما كسلوك الصم والبكم التي أشرت اليها والتي تنم عن تفكير سليم دون الحاجة إلى استخدام اللغة ، وكلغة التحيات والتأدب ولغة التدريب العسكري والرياضي ، وكالحديث الداخلي " المونولوج " والمناجاة من صلاة ودعاء واستغفار .

وهذه المظاهر توهم بعدم التلازم ، ولكن المتأمل فيها لا يجدها تخرج بالعلاقة عن دائرة التلازم . فالصم والبكم يفكرون باللغة كما أثبتت التجربة التي أشرت إليها آنفا [١] . ولغة التحيات والتأدب في أساسها تعبير عن مفهوم معين للحياة ناتج عن الفكر وكذلك لغة التدريب العسكري والرياضي ، والحديث الداخلي حديث مع النفس والمناجاة حديث مع الله يعبر به الإنسان عن مكنون فكره ويناجي به ربه .

ولقد تلتقي المدرستان الثانية والثالثة المشار اليهما في الظاهر وخصوصا من حيث اهتمامهما بعلمية الدراسة اللغوية ومن حيث اهتمامهما بالفكر ، لكن الفرق بينهما يبدو كبيرا إذا نظرنا إليه من الزاوية التي تنطلق منها كل من المدرستين كما أسلفت . لذلك جاءت منهجية المدرسة الثانية متساوقة والمنهج التجريبي للعلوم الطبيعية في حين جاءت منهجية المدرسة الثالثة متساوقة والمنهج الذي يقوم عليه النسق الرياضي ذو البعد المنطقي .

ويبدو لي أن المدرسة الثالثة قد قاربت طبيعة الإنسان في نظرتها إلى اللغة إذ تنظر إلى الانسان وإلى لغته وفكره في سياق العلاقة التبادلية بين الروح والمادة ، بين اللغة والفكر كما أسلفت .

ومن هنا ، ومن خلال ما فيها من بعد تأملي ومن خلال المعيار القائم على الفكر ، ومن خلال نظرتها الشمولية العميقة التي تتناسب وسنن الكون فإني أراها أقرب المدارس إلى طبيعة الحياة وطبيعة الإنسان وطبيعة اللغة . ولقد يكون ارتكازها إلى النسق الرياضي هو أضعف حلقاتها ، إذ يقلل هذا من حيويتها باعتبارها معبرة عن الحياة ويحولها إلى أرقام صمّاء مجرّدة .

لمحة عن تطور الدلالة وأثر البيئة والثقافة فيها :

يعتبر تطور الدلالة من المباحث التي حظيت باهتمام علماء اللغة والفلاسفة وعلماء الكلام وعلماء أصول الفقه ؛ لما له من علاقة بالمباحث التي ترتكز على اللغة وما يلحق بها من تبدل في دلالات ألفاظها وتراكيبها يؤثر تأثيرا كبيرا في المفاهيم التي يطرحها هؤلاء وأولئك .

---

[١] انظر : هذا البحث ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند العرب يرجع الاهتمام الخاص بالدلالة إلى ما لهذه الدلالة من صلة بفهم النص الشرعي قرآنا وحديثا ، ولذلك اهتم علماء اللغة وعلماء أصول الفقه وعلماء الكلام العرب بأنواع الدلالة والتحولات التي تطرأ عليها ولذلك أشاروا إلى الدلالة الوضعية والعرفية والشرعية ، كما أشاروا إلى أن الدلالة تبدا من الدلالة الوضعية وتتحرك في دائرة العرفية كتعارف الناس على إطلاق لفظ على معنى أو من خلال استعمال لفظ في غير ما وضع له أصلا عن طريق المجاز الذي قد يشيع حتى يحل محل المعنى الأصلي ، أو أن يكون أبلغ في الدلالة من الدلالة الأصلية (١)

وفي سياق الحديث عن المعنى العرفي أشار الإمام الغزالي إلى أن الاسم يسمى - عرفيا - باعتبارين ، أحدهما : أن يوضع لمعنى عام ، ثم يخصص عرف الاستعمال من أهل اللغة ذلك الاسم ببعض تسمياته دون بعضها الآخر كنقل اسم الدابة من العموم إلى الخصوص فتصبح دالة على ذوات الأربع على الرغم من أنها في أصل الوضع تفيد العموم وتدل على كل ما يدب على الأرض ، وكنقل اسم المتكلم من عموم التكلم إلى خصوص التكلم بعلم الكلام . وثانيهما : أن يصير الاسم شائعا في غير ما وضع له أصلا بل فيما هو مجاز فيه . وقد مثل على ذلك بلفظ " الغائط " الذي وضع أساسا للمطمئن من الأرض ثم انتقلت دلالته عن طريق شيوع استخدامه المجازي (٢) .

وهذا المفهوم يقترب من مفهوم " التأقلم " الذي أشارت إليه الدراسات اللغوية الحديثة التي قام بها علماء اللغة الغربيون " كجوزف فندرس " الذي يرى أن معنى الكلمة يتعرض للتغيير كلما ازداد استعمالها وكثر ورودها في نصوص مختلفة ، لأن الذهن يوجه في كل مرة في اتجاهات جديدة مما يوحي بمعان جديدة (٣) .

ومسألة الدلالة مسألة معقدة إذ تتداخل فيها عوامل عديدة ، النص نفسه من جهة وأحوال المتكلم النفسية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك أحوال المتلقي والظروف التي تحيط بالأداء اللغوي ؛ ظروف البيئة وطرق التفكير والاتجاهات الثقافية والسياق اللفظي والمعنوي

---

(١) انظر : سيد أحمد عبد الغفار - التصور اللغوي عند الأصوليين ، الطبعة الأولى - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ٣٩ .

(٢) انظر : الإمام الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد بن احمد : المستصفى في أصول الفقه ، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ١٩٩٣ م - ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) انظر : جوزيف فندريس - اللغة - ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص - مكتبة الانجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٠م ، ص ٢٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتطور الدلالي التاريخي والمقام ، الذي أدى إلى إنتاج ما أنتج أو الذي في سياقه يتم الأداء وما إلى ذلك . كل ذلك يؤدي إلى تعدد الدلالة وتنوعها وتحولها ولكن هذا التحول والتطور يتمان من خلال الدوران في فلك الدلالة الأصلية على وجه العموم ، وقد يضيق النظر إلى الدلالة أو يتسع تبعا للاستخدام .

وقد مثل الجاحظ على الدلالة المتحولة بكلمة " صرورة " التي كانت في الجاهلية تعني أرفع الناس في مراتب العبادة وأطلقت في الإسلام على من لم يقم بفريضة الحج وهو نقيض المعنى الأصلي (١) .

كما مثل على تأثير البيئة في الدلالة حين ربط الدلالة بالوضع النفسي الناجم عن البيئة في سياق حديثه عن ابن الصحراء الذي يتأثر كثيرا حين تذكر أمامه ألفاظا مثل النار والصيف والحرارة وما أشبه ذلك لأن هذه الألفاظ ستوحي إليه بحرارة الصحراء المخيفة ، وحين نقل بعض مزاعم المتكلمين أن زرادشت صاحب المذهب المجوسي جاء من بلخ (٢) وادعى أن النبوة نزلت عليه في جبال سيلان وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة الذي يسبب البرد لهم أذى والذين يضربون المثل به حتى إن الرجل يقول لعبده : لئن عدت إلى هذا لأنزعن ثيابك ولأقيمنك في الريح ، ولأوقفنك في الثلج . فلما رأى تأثير البرد فيهم جعل الوعيد في الآخرة عنده بتضاعف البرد والثلج ظنا منه أن ذلك هو الذي يجعلهم يرجعون عما يريد أن ينهاهم عنه (٣) .

وتأثير البيئة يجعل بعض الألفاظ تتعدد دون بعضها الآخر كتعدد أسماء الثلج عند الأسكيمو وكتعدد أسماء السيف والفرس والجمل عند العرب . كما أن الفروق الموجودة بين مفردات الشعوب قد تلقي بعض الضوء على ثقافتهم ، فالمعبد لفظ عام الدلالة والكعبة تدل على مكان بعينه ، والبيعة ليست كالكعبة وهي أضيق دلالة من المعبد ، فهي تدل على المعبد الصغير للمسيحيين وحدهم ثم توسعت العرب فيها وأطلقتها على المعبد اليهودي الصغير ، وهناك ألفاظ طورها الفكر والثقافة من ألفاظ حية إلى ألفاظ مجردة كالمروءة التي أصلها من المرء أي الشخص وكلمة الروح أصلها من الريح والعقيدة من عقد الحبل ، وكذلك العقل والعقيلة من الربط والشرف من الشرفة والبيان من الإبانة أي الأفصاح والأعراب عن الفكر

---

(١) انظر : الجاحظ ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر : الحيوان ، تحقيق فوزي عطوي ، ط ٣ - بيروت ، دار صعب ١٩٨٢ ، ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) بلخ : من أجل مدن خراسان وأكثرها ذكرا وعمرا وأوسعها غلة (ياقوت الحموي - معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٩) .

(٣) انظر : الجاحظ - الحيوان ج ٥ ص ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باللغة [١] ، قال تعالى : ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ [٢] ، وقد كان الناس في مناطقنا يصفون الذين ترق لهجتهم بأن ماءهم حلو ؛ إشارة إلى تأثير البيئة . وفي الصين مثلا يعتبر فصل الربيع فصل التقلبات الجوية وفصل الخريف هو فصل الجمال ، فلو وصفت شخصا بأنه كالربيع أو أنه في ربيع عمره فلربما كان ذلك سلبيًا ، أماإذا قلت : إنه كالخريف أو في خريف عمره فمن الممكن أن يتقبل منك ذلك ؛ انطلاقا من المفاهيم التي خلقها واقعهم في حين أن ذلك يحمل معنى سلبيا عند العرب ، انطلاقا من واقعهم هم أيضا . وفي الصين كذلك يكثر السؤال عن الطعام ، فهم يقولون لك مستفسرين عن أحوالك هل أكلت ؟ تعبيرا عن السياق التاريخي للجوع الذي عاشوه نتيجة سيطرة أصحاب الأراضي المستغلين ، وتعبير القوتين العظميين مثلا كان يحمل هناك معنى سلبيا لأنه ارتبط عندهم بالسيطرة والهيمنة والتسلط في حين لا يحمل المعنى نفسه عندنا [٣] .

وفي الجزائر ترادف كلمة العربي كلمة المسلم لأن الجزائر وبلاد المغرب العربي عموما ليس فيها نصارى من أصل سكانها العرب ، لذلك عندما حاول مرة أحد النصارى العرب أن يدخل مطعما خصص لغير المسلمين في رمضان أنكر عليه عمال المطعم ذلك وعندما أخبرهم أنه عربي هموا به وحين أراد أن يوضح لهم أنه عربي ولكنه نصراني انهالوا عليه وأوسعود تأنيبًا ؛ لأنهم اعتبروه مسلمًا مرتدًا [٤] .

وتختلف الأساليب اللغوية باختلاف الفكر والثقافة والمفاهيم السياسية والاجتماعية ؛ فلغة الفلاسفة والساسة والمثقفين عموما أميل إلى الهدوء والترابط المنطقي ، في حين أن لغة الشعراء أميل إلى علو النبرة والخروج على المألوف وتكون مشحونة بالعاطفة والخيال .

وتختلف المفاهيم باختلاف فكر الجماعات أو الأشخاص الذين يعبرون وثقافتهم . فعبارة " ثقافة دينية " مثلا تحمل عند غير المتدينين معنى سلبيا في حين تحمل عند المسلمين وعند عموم المتدينين معنى إيجابيا ، كذلك كلمة " شيوعي " وكلمة " أصولي " ... الخ . وكذلك فلفظتا اليسار واليمين تحمل كل منهما دلالات مختلفة إذا أطلقها الأوروبيون أو الشيوعيون أو المسلمون .

---

(١) انظر : د . عبد الصبور شاهين ـ علم اللغة العام ـ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م ، ص ١٩٨ .

وانظر : د . احمد حماد : العلاقة بين اللغة والفكر ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) سورة الرحمن ، الآيتان ٣ ، ٤ .

(٣) من تجاربي الشخصية في الصين .

(٤) من تجاربي الشخصية في الجزائر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يجد المرء صعوبة بالغة في فهم نص معين ، إذا لم يكن على صلة بالعادات والتقاليد والمفاهيم السائدة في وقت تأليف النص ، ومن ذلك مثلا ما ورد في قصيدة للعباس بن الأحنف ؛ حين قال :

يا قرة العين يا من لا أسميه يا من إذا " خدرت رجلي " أناديه [1]

فإن من يسمع قوله : " خدرت رجلي " يتوهم فيه لأول وهلة غضا من طرف من يناديه ؛ حتى إذا تثبت وجد أنه من المفاهيم التي كانت سائدة ، أنه إذا خدرت رجل المرء فنادى على من يحب ، جاءه في الحال .

اللغة والفكر عند الإمام فخر الدين الرازي :

على الرغم من أن النظرية الأولى تقوم على أن اللغة تحمل الفكر وتنقله ، ولكنها لا ترى وجود تأثير متبادل بينهما والثانية تعتبر اللغة والفكر شيئا واحدا وأن الفكر يتجلى على شكل لغة وأن الثالثة ترى وجود فكر خاص ووجود لغة ولكن العلاقة بينهما تبادلية تلازمية . وعلى الرغم من الأدلة التي جاءت بها كل مدرسة لإثبات ما ذهبت إليه ؛ إلا أن ثمة مظاهر للعلاقة بين اللغة والفكر ترجح رأي المدرسة الثالثة التي ترى تلازم العلاقة ، ويمكن تبين هذه العلاقة من خلال محاور عديدة سوف أعرض بعضها من خلال عرض العلاقة بين اللغة والفكر عند الإمام فخر الدين الرازي ، ومن بين المحاور التي يمكن أن تلاحظ فيها هذه العلاقة : محور اللغة الخفية أو الصامتة ومحور البحث في نشأة اللغة ومفهومها ومحور القياس والتعليل المنطقي للغة ومحور البنية العميقة والبنية السطحية ومحور العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وبما أن العلاقة بين اللفظ والمعنى هي موضوع الفصل الثاني من هذا البحث والقياس والتعليل المنطقي هو ركيزة من الركائز التي يستند إليها الفصل الثالث فسأكتفي هنا بعرض المحاور الثلاثة الأخرى مع إشارة إلى التعليل المنطقي :

١ - اللغة الخفية أو الصامتة :

كان الإمام فخر الدين الرازي من بين المتكلمين وعلماء اللغة الذين ربطوا بين اللغة والفكر ؛ وذلك من خلال بيانه للتلازم القائم بينهما .

وفي سياق هذا التلازم وصف حال الإنسان ؛ إذا جلس في الخلوة وتواترت الخواطر في قلبه بالوصف التالي : قال : " كأنه يسمع في داخل قلبه ودماغه أصواتا خفية وحروفا

---

(١) العباس بن الأحنف - ديوان العباس بن الأحنف ،، دار صادر - بيروت - لبنان ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خفية ، فكأن متكلما يتكلم معه ومخاطبا يخاطبه " (١) . فالإنسان عنده لا يفكر إلا وتفكيره مقترن باللغة .

كما أن الألفاظ عند الفخر الرازي تدل على ما في العقول من تصورات لا على ما في الأجسام ، أي أنها مقترنة بالفكرة التي يكونها العقل عن الشيء لا بالشيء نفسه . وهذا ما عبر عنه بقوله : " للألفاظ دلالات على ما في الأذهان ، لا على ما في الأعيان " (٢) .

فالمعنى عنده قائم على ما يتصوره المرء ، لا على ما هو في الحقيقة وقد مثل على ذلك بأن الإنسان إذا رأى جسما من بعيد وظنه صخرة قال : " إنه صخرة " فإذا اقترب منه وظنه حيوانا قال : إنه حيوان ، ثم إذا ظهر له في النهاية أنه إنسان قال : إنه إنسان . واستنتج من اختلاف الأسماء عند اختلاف الصور الذهنية أن الأسماء لا تدل إلا على الصور وليس على الأشياء في ذاتها (٣) .

كما أشار إلى تساوق النظام الفكري والنظام اللغوي حين طرح في سياق حديثه عن الحروف من خلال طرحه موضوع " وسوسة الشيطان " أن صور الحروف وتخيلاتها هي حروف وأن الخواطر هي أيضا أصوات وحروف خفية ، وحين أشار إلى أن هذه الحروف والأصوات مترتبة منتظمة على حسب انتظامها في الخارج (٤) .

وإذا كانت الحروف والألفاظ عنده لا تخطر إلا مترافقة والفكر ؛ فما حال التراكيب اللغوية ؟ وهل تفيد الحدث ؟ أم تفيد الحكم العقلي به ؟ لقد كان الفخر الرازي يعتبر المركبات ذات دلالة على الحكم العقلي ، قال : " لأنك إذا قلت قام زيد ، فهذا لا يفيد قيام

---

(١) فخر الدين الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٩٤ .

(٢) فخر الدين الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣١ .

(٣) انظر : فخر الدين الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣١ .
والمضمون نفسه في كتابه : المحصول في علم أصول الفقه دراسة وتحقيق الدكتور طه جابر فياض العلواني ـ الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م . ج ١ ص ٢٠٠ .
وفي كتابه : نهاية الايجاز في دراية الإعجاز تحقيق د . ابراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات حمدي أبو علي ـ دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ـ الأردن ـ ١٩٨٥ ص ٧١ .

(٤) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٥ ص ٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زيد ؛ وإنما يفيد أنك حكمت بقيام زيد وأخبرت عنه " (١) . فهو حكم عقلي يقوم به المتكلم ، وليس شرطا أن يكون الحدث قد حدث ؛ لأنه لو دل كل قول على حدوث ما نتحدث عنه لكانت الألفاظ مجردة حين وجودها تعني وتدل على حدوث الحدث في الوقت نفسه . فقولك : خرج زيد ، هو حكم عقلي بخروجه وليس دليلا على خروجه ، لأنه لو كان كذلك لكان الأمر أنه كلما أطلق هذان اللفظان اقتضى الأمر خروج زيد لاستحالة انفكاك الدليل عن المدلول (٢) ، وهذا ما لا يحدث بالفعل . لأن التراكيب اللغوية حين التلفظ بها ، ذات طابع فكري وبهذا تتلازم اللغة والفكر .

وقد أشار الفخر الرازي إلى تلازم اللغة والفكر حين ذكر أن العربي لا يتكلم في قلبه إلا بالعربية ، وكذا العجمي (٣) . ولا يمكن أن يتكلم في قلبه بلغة أخرى إلا حين يتمثلها ويتمثل أساليب أهلها وطرقهم في التفكير وهذا ما يحدث صعوبة في الترجمة من لغة إلى أخرى .

والإمام فخر الدين الرازي كان يؤكد التطابق بين المعاني والمباني من حيث التوالي والتعاقب حين أوضح أن تصورات الحروف وتعاقبها وتواليها لا تكون إلا مطابقة لتعاقبها وتواليها في الخارج ، وبذلك يثبت أنها في أنفسها حروف وأصوات خفية (٤) .

ولذلك فإن صورة الحروف الذهنية مطابقة لحقيقتها الفعلية من حيث تواليها وتعاقبها ، أي من حيث انتظام بنيتها . فالتفكير عنده لغة خفية أو صامتة كما يرى بعض علماء اللغة في العصر الحديث وبهذا تقترب وجهة نظر الإمام فخر الدين الرازي من بعض النظريات الحديثة في التلازم بين اللغة والفكر ؛ كما رأينا عند تشومسكي وكما رأينا عند الإشارة إلى مدرسة براغ ومنهجها البنيوي الوظيفي . وأظن أن الإشارات التي أوردها الفخر الرازي حول تلازم العلاقة بين الفكر واللغة ذات أهمية بالغة في درس مفاهيمه القائمة على منهجه في فهم اللغة وتصوره لها ، وإن كان ما جاء به الرازي لم يتخذ طابع النظرية المتكاملة إذ لم يكن ذلك من الأمور الضرورية ؛ فهو لم يكن بصدد وضع منهج متكامل وإنما بصدد وضع مقدمات لتفسيره للقرآن الكريم ، ولبحثه في أصول الفقه ، ولبحثه في إعجاز القرآن الكريم . وتبدو مسألة

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٥ ص ٢٠١ .

(٢) انظر : الفخر الرازي - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٧١ .

(٣) انظ : الفخر الرازي - التفسير الكبير ج ٥ ص ٤ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٥ ص ٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقة بين الصورة الذهنية والحقيقة الفعلية ، وخروج الصورة مجسدة على شكل أصوات بحروف تدل عليها تعميقا لمسألة كان أشار إليها الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) حين صنف المراتب التي يمر بها الشيء الذي يراد التعرف إليه في أربع مراتب : هي حقيقة الشيء في نفسه وثبوت مثال حقيقته في الذهن ، ثم خروجه على شكل أصوات بحروف تدل عليه ، وأخيرا تأليف رقوم كتابية تدرك بحاسة البصر . وقد كان الغزالي يرى أن الوجودين الأول " الحقيقة " والثاني " الصورة " لا يتغيران بتغير العصور والأمم لأنهما موضوعان بالاختيار " (١) .

وفكرة الاختيار التي طرحها الغزالي فكرة ذات أهمية بالغة في بيان ما يقصده المتكلم حين يطلق اللفظ . والاختيار لا يكون إلا من متعدد ؛ والمتعدد يفتح باب الاجتهاد الذي يعبر عن تعدد الأفكار وتنوعها ، والإمام فخر الدين الرازي هو أيضا ينظر إلى الدلالة من المنظار نفسه لأنه ينظر إلى الصور الذهنية المتنوعة المتعددة تعدد الزوايا التي ينظر المتكلم من خلالها مقرونة بالزمان الذي ينظر من خلاله . وإن كان يختلف مع الغزالي في النظر إلى حقيقة الشيء التي تسبق صورته الذهنية عند الغزالي .

والفكرة التي طرحها الفخر الرازي والتي رأيناها عند الغزالي قبله نضجت في العصر الحديث وأخذت طابع النظرية عند بعض علماء اللغة في العصر الحديث ومن بين هؤلاء العلماء العالم " استيفن أولمان " في كتابه " دور الكلمة في اللغة " الذي ذهب فيه المذهب نفسه الذي كان عليه الغزالي والرازي وأضاف إليه أن اللفظ أيضا يعيد الفكرة ثانية ، وقد مثل على ذلك ب (المنضدة) ، فنحن نفكر فيها ثم لا يلبث اللفظ الذي نطلقه أن يعيد الصورة إلى أذهاننا (٢) .

وفي سياق آخر بحث الرازي مسألة العلاقة بين المعاني غير المتناهية والحروف المتناهية حين أورد أنه ليس بالضرورة أن يكون لكل معنى لفظ ؛ لأن المعاني التي يمكن أن تعقل لا تتناهى والألفاظ متناهية ؛ لأنها مركبة من الحروف ، والحروف متناهية ، والمركب من المتناهي متناه . والمتناهي لا يضبط ما لا يتناهى ، وإلا لزم تناهي المدلولات . وقد حل الرازي المعضلة بأن اعتبر أن من المعاني ما تكثر الحاجة إليه ؛ فلا بد له من ألفاظ لأن الداعي إلى وضع الألفاظ لها حاصل والمانع زائل . وفي هذه الحالة اعتبر الرازي أنه يجب

---

(١) انظر : الغزالي / المستصفى في علم أصول الفقه ج ذ ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) انظر : ستيفن أولمان ـ دور الكلمة في اللغة ، ترجمة وتقديم وتعليق د . كمال محمد بشر ، ط ٣ ، مكتبة الشباب ـ القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إطلاقه أو بعد إطلاقه . وذلك لأن الكلام عند الفخر الرازي وعند همبولد ليس ما يحدثه الكلام من أثر بل هو الكلام نفسه أو الحدث أو النشاط نفسه أي الفعل نفسه .

٢ - نشأة اللغة ومفهومها :

اختلف العلماء والفلاسفة في نشأة اللغة ، وكان مصدر اختلافهم ما في أذهانهم من تصور للعلاقة بين الله سبحانه وتعالى والمخلوقات . لذلك فإن مسألة نشأة اللغة ، مسألة فكرية بالدرجة الأولى . فالخوارج مثلا والشيعة وأهل السنة عموما والحنابلة منهم على وجه الخصوص ، الذين اعتبروا كلام الله (القرآن الكريم) قديما ، رأوا أن اللغة توقيفية ، علم الله بها آدم عليه السلام ، مستندين إلى الأية الكريمة :﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾(١) وأكثر من يمثل هذا الاتجاه ابن فارس في كتابه : الصاحبي في فقه اللغة . والمعتزلة الذين رأوا كلام الله (القرآن الكريم) مخلوقا رأوا أن اللغة نشأت عن طريق التواضع والاصطلاح ، ولذلك أولوا الآيات المشعرة بغير ذلك .

وكان لابن جني آراء في نشأة اللغة منها أنها تواضع واصطلاح (٢) ، وحين أشار إلى أن أبا علي الفارسي كان قال له : إنها إلهام من الله ، ردّ قوله المستند إلى الآية السابقة بأنّ أوّل الآية مبينا أن معناها أن الله قد أقدر آدم على إيجاد هذا التواضع والاصطلاح الذي نشأت اللغة بسببه (٣) . وفي سياق آخر تحدث ابن جني عن أن اللغة قد نشأت من تقليد أصوات الطبيعة .

أما الأشاعرة ، وهم من أهل السنة والجماعة ، فقد كان لهم رأي في نشأة اللغة يتسم بسمات مهمة ، إذ خرجوا به عن السياق العام الذي ظل سائدا فقد اعتبر الإمام الغزالي (ت٥٠٥ هـ) أن البحث في هذه المسألة لا طائل تحته ؛ إذ لا يمكن أن يصل المرء فيه إلى يقين هل كان نشوء اللغة إلهاما ؟ أم كان اصطلاحا ؟ وذلك حين توقف عند رأي كل من الطرفين ورده (٤) .

---

(١) البقرة / الآية ٣١ .

وانظر : ابن فارس ؛ أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق د . مصطفى الشويمي ، طبع ونشر مؤسسة بدران للطباعة والنشر - ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م بيروت - لبنان ، ص ٣١ - ٣٨ .

(٢) انظر : ابن جني ؛ ابو الفتح عثمان بن جني - الخصائص ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، ج١ ص ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) انظر : الغزالي / المستصفى ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الإمام فخر الدين الرازي فقد بحث في الأدلة الدالة على الإلهام وفي الأدلة الدالة على التواضع والاصطلاح ؛ ولم يرجح دليلا منها على الآخر وانتهى إلى تكافؤ الأدلة ؛ قال : " لما ضعفت هذه الدلائل جوّزنا أن تكون كل اللغات توقيفية ، وأن تكون كلها اصطلاحية ، وأن يكون بعضها توقيفيا وبعضها اصطلاحيا " (١) .

ويبدو أن كلاً من الغزالي والرازي قد اتخذ موقفًا نقديًا من المنهج الذي ظل سائدًا والذي كان يعتمد نظرة أحادية الجانب (٢) ، وقام بالتالي بكسر الجمود الذي ظهر عند الطرفين اللذين أشرت إليهما سابقا وانطلق يربط بين الإلهام والتواضع برابط التكامل ، وأظن أن موقف كل من الغزالي والرازي يكتسي أهمية منهجية كبيرة إذ يفتح الباب لقيام اتجاهات متعددة تقوم بينها علاقة تكاملية تبادلية ينظمها إطار جامع كما أظن هذا الموقف جاء انسجاما مع موقفهما من الحياة والإنسان القائم على العلاقة التكاملية التبادلية بين الوعي والمادة والروح والجسد والفكر واللغة . أما ماهية اللغة فقد عرفها ابن جني بقوله : " حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " (٣) .

فاللغة عند ابن جني أصوات ، معبرة ، تختص بقوم ما ، يعبرون بها عن أغراضهم ، ومن الواضح أن ابن جني قد حصر اللغة في الأصوات المعبرة وليس في الأصوات المجردة . كما أنه جعل اللغة معبرة عن المفاهيم التي يريد كل قوم أن يعبروا عنها والتي تتمحور حول الفكر ولكنها لا تتقيد بقيوده بل جاءت على سعة الأغراض وتنوعها . ولم يهمل ابن جني البعد الاجتماعي للغة حين جعلها في القوم وليس في الفرد .

وأكد الإمام فخر الدين الرازي فكرة أن اللغة تعبير وتوصيل فقد ذكر ما يفيد أن اللغة أصوات معبرة وأنها ضرورة من ضرورات التواصل الاجتماعي يعبر بها الناس عما في ضمائرهم (٤) وأنها أبسط الطرق ، وأقلها كلفة وأكثرها اختصارا . إذ يمكن بعدد من الحروف أن يكوّن عددا غير محدود من الكلمات ، واستنتج من ذلك كله أن العقول السليمة اقتضت كما قال : " أن أحسن التعريفات لما في القلوب هو الألفاظ " (٥) .

---

(١) الفخر الرازي - التفسير الكبير ج ١ ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) انظر د . عبد القادر المهيري وحمادي صمود وعبد السلام المسدي : النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص ، - الدار التونسية - تونس١٩٨٨ ، ص ٢١ .

(٣) ابن جني / الخصائص ج ١ ص ٣٣ .

(٤) الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣٣ .

(٥) المرجع نفسه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبهذا فقد ربط الإمام الرازي بين البعد الوظيفي للغة والبعد الاجتماعي ، واعتبر اللغة أداة - ليس للتعبير فقط - بل للتوصيل أيضا . إذ اعتبر الحكمة من وضع الألفاظ للمعاني ترجع إلى " الحاجة إلى تعريف غيره ما في ضميره ، ليمكنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير " (١) .

وأشار الرازي كذلك إلى جانب نفسي مهم من خلال تعلق اللغة بالزمن إذ يستطيع المرء عن طريق اللغة إظهار ما يريد إظهاره واخفاء ما يريد إخفاءه . واللغة كما مر بنا تتعلق باللحظة الزمانية المحددة التي يطلق فيها الشخص اللفظ وبالطبع لا تكون موجودة قبل ذلك وتنتهي وتختفي بعد إطلاقه ، فاللغة تنتهي لحظة ظهورها . وهذا الذي وصفه الرازي بأنه في الضمير وذاك الذي وصفه بأنه في القلوب هو الذي يعبر عنه بالفكر وما يحيط به من أحاسيس ومشاعر . فالرازي يريد لكل معنى من المعاني أي الأفكار كلمة من الكلمات ، أي لفظًا من الألفاظ . مفرقا بين هذه الوسيلة الحيوية في التعبير والتوصيل وبين وسيلة الإشارة والتصفيق وتحريك الجسم وما إلى ذلك .

وقد تحدث الرازي عن كيفية حدوث اللغة متتبعا اللغة منذ اندفاع الهواء من أعماق الإنسان وكيف يتحول عند خروجه إلى مادة الصوت وأن الله قد خلق محابس ومقاطع للصوت في الحلق واللسان والأسنان والشفتين وبذلك تحدث الحروف المختلفة وأن تركيب الحروف يكوّن الكلمات التي لا نهاية لها (٢) .

وهذا الذي طرحه الرازي قريب مما وصل إليه علماء اللغة في العصر الحديث ، أولئك الذين اعتبروا اللغة جهازا عضويا ، ومن بين هؤلاء العلماء (همبولد Humboldt) الذي عالج اللغة على هذا الأساس ، فاللغة عند همبولد هي نظام عضوي و " بنية Sprach form " و " صورة باطنية Inner form " مخالفة للصورة الظاهرية للكلام ، واللغة عنده أيضا شرط لازم لوجود الفكر ، حيث إن الكلام عنده ينحصر في منحه الفكر مادة يعتمد عليها بفضل ما تتركه الأصوات المقطعة من أثر ثابت بإجبارها الذهن على أن تنتظم جميع معانيها بانتظام ألفاظها المتعاقبة (٣) .

وهذا الذي طرحه همبولد قريب مما طرحه الفخر الرازي حين ربط بين النظام الصوتي والحواجز الصوتية التي تساعد في تشكل الأصوات وتوالي أجزائها وانتظامها وبين توالي المعاني والأفكار وانتظامها .

---

(١) الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣٣ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣٤ .

(٣) انظر : التهامي الهاشمي / توطئة لدراسة علم اللغة - التعاريف ص ٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القياس والتعليل المنطقي للغة :

بحث الفخر الرازي في التعليل المنطقي للغة ، وتحدث عن الدلالة العقلية للتركيبات اللغوية (١) . كما استنتج من التركيبات اللغوية وسياقها المنطقي بعض مفاهيمه وهو موضوع الفصل الثالث من هذه الرسالة (٢) . ولذلك سأكتفي هنا بالإشارة إلى أن الرازي كان من الذين يعتمدون القياس والعلل العقلية المنطقية في الوصول إلى تحديد المفاهيم وكذلك كان ممن يعتمدون المعايير اللغوية كمبدأ العامل والمعمول والأصل والفرع بمعناهما الفلسفي وما إلى ذلك وبذلك يلتقي الفخر الرازي مع ما طرحه همبولد ومن ثم تشومسكي الذي رفض فكرة الكشف (التجربة) عند بلومفيلد والسلوكيين عموما وتمسك بفكرة التقويم (المعيار) الإدراكي الذهني (٣) والذي أعاد الاعتبار للعلل العقلية والمنطقية في فهم الصيغ اللغوية . ولقد كان القياس والتعليل المنطقي للغة الذي أثر في صياغة ما صاغ الإمام فخر الدين الرازي من مفاهيم كلامية ، دليلا على أهمية اللغة من ناحية وعلى أهمية المنطق من ناحية أخرى ، كما كان دليلا على عمق العلاقة بينهما ؛ ذلك المنطق الذي جعله أرسطو محور تعريفه للإنسان حين عرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق ، وعرّف الناطق بأنه المفكر ؛ لعمق العلاقة بين النطق واللغة ، والذي أخذ منه التعبير اليوناني " Logos " ومنه أخذ التعبير العربي (المنطق) الذي هو علم قوانين الفكر والمرتبط بالنطق الذي هو اللغة حيث نتكلمها (٤) .

البنية العميقة والبنية السطحية :

تابع الإمام فخر الدين الرازي في سياق الحديث عن مسألة قدم القرآن وخلقه رأي الأشاعرة عموما ورأي عبد القاهر الجرجاني من علماء أهل السنة والجماعة خصوصا في تقسيم الكلام إلى قسمين : القسم الأول : الكلام القائم بالنفس الذي يمثل حالة ثابتة ؛ وهو المعاني بما تحويه من تعقيدات ، وهو قديم قدم الذات ، والقسم الثاني : الكلام القائم بالفعل ،

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣٤ .

(٢) انظر : الفصل الثالث من هذه الرسالة وهو بعنوان : أثر تصور الرازي للغة في مفاهيمه الكلامية .

(٣) انظر : تشومسكي - محاضرات ورن ص ٧٧ .

: تشومسكي - البنى النحوية ص ٥١ - ٦٦ .

: جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ص ٣٠ - ٣٢ .

(٤) انظر د . عبده الراجحي - فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية - بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م ، ص ٧٤ .

وعن اللغة والمنطق انظر د . تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء - المغرب ١٤٠١ هـ - ١٩٨٥ م ، فصل استقلال المنهج اللغوي ص ٢٢ - ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو الكلام المكون من الأصوات والحروف والكلمات ؛ وهو حادث مخلوق (١) . وبذلك أوجد عبد القاهر والأشاعرة ومن بينهم الفخر الرازي الأرضية النظرية لحل المشكلة التي شكلت أزمة معقدة بين الحنابلة والمعتزلة .

ويبدو أن الإمام فخر الدين الرازي ، قد كانت له وجهة نظر في معاني اللغة تقترب مما سمّاه تشومسكي : " البنى العميقة والبنى السطحية " ، حيث قسم تشومسكي الكلام إلى بنيـــة عميقة ، وهي المعنى ، وهي الفكر الذي يمثل التعقيدات النفسية والاجتماعية التي يعانيها المتكلم ، وبنية سطحية ، وهي الشكل اللغوي أو الأداء اللفظي المتحقق فعلا ؛ وهو الأساس الذي استند إليه فيما سمّاه النحو التوليدي والتحويلي والمنطلق من القدرة الفعّالة والمستند إلى معيار الصحة والخطأ الذي سمّاه " النحوية " التي تعتمد على المحرك الداخلـــي المسمّـــى " الحدس " (٢) ، ذلك النحو التوليدي التحويلي الذي اعتبره جون ليونز " ضرورة أساسية لكل فيلسوف أو عالم نفس أو عالم أحياء يرغب في دراسة قدرة الإنسان اللغوية ، خصوصا العلاقة بين التركيب اللغوي والخصائص الفطرية للعمليات المعقدة " (٣) .

فالعمليات النفسية والعصبية المعقدة ، تتدخل في استقبال الكلام وفهمه وربما كان ذلك من الأسباب والعوامل النفسية التي تفسر الاختلاف بين الجمل التي ينطقها ابن اللغة فعلا وتلك التي يصنفها عالم اللغة بأنها صحيحة نحويا .

فقد تحتوي الجمل المنطوقة فعلا على عدد من الأخطاء والتحريفات مثل النطق غير الصحيح والجمل غير التامة نتيجة العجز في العمليات المتصلة بالكلام مما يهيء لعالم النفس تصورا لما يجري داخل التركيب اللغوي . وهذا الأمر ذو قيمة واضحة في فهمنا وإدراكنا للعمليات العقلية (٤) .

وفي هذا النطاق قال الإمام فخر الدين الرازي في معرض تفسيره سورة طه : قال الأشعري : إن الله تعالى أسمع موسى الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت . والمقصود هنا الكلام القائم بالنفس وأضاف أن المعتزلة قد أنكروا ذلك الكلام فقالوا : انه سبحانه خلق ذلك النداء في جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها ؛ لأن النداء كلام الله تعالى والله قادر

---

(١) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ٤٣ .

(٢) انظر : تشومسكي / محاضرات ورن (تأملات في اللغة) ص ٧٥ وكذلك البنى النحوية ٣٦ - ٦٦ .

(٣) جون ليونز / نظرية تشومسكي اللغوية ص ٣٠ - ٣٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق نفسه ص ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه ، ومتى شاء فعله . وأما أهل السنة من بلاد ما وراء النهر (١) فقد أثبتوا الكلام القديم ؛ إلا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى في الشجرة . واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث ، وقد قالوا : إنه تعالى رتب النداء تبعا لوصول موسى إلى النار ، والنار محدثة والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث (٢) .

كما ناقش الإمام فخر الدين الرازي فكرة الكلام النفسي والكلام الفعلي في سياق حديثه عن الحكمة من وضع الألفاظ للمعاني ، فقد أشار إلى أنه لا معنى للكلام اللساني إلا الاصطلاح من الناس على جعل هذه الأصوات المقطعة والحروف المركبة معرّفات لما في القلوب والضمائر ، وأنه لو قدرنا أن الناس تواضعوا على جعل أشياء أخرى غير الحروف والأصوات معرفات لما في الضمائر ، لكانت تلك الأشياء كلاما أيضا . وإذا كان الأمر كذلك ، لم يكن الكلام صفة حقيقية مثل العلم والقدرة والإرادة ، بل أمرا وضعيا اصطلاحيا لأن الكلام هو فعل مخصوص كي يعرّف الإنسان غيره ما في ضميره . وأما الكلام الذي هو صفة قائمة بالنفس فهو صفة حقيقية كالعلوم والقدرة والإرادة (٣) .

فالمعاني عند الإمام فخر الدين الرازي تتغير بتغير اصطلاح الناس وتواضعهم ، والمعاني التي تتغير هي المعاني القائمة بالفعل التي تماثل البنى السطحية عند تشومسكي ، أما المعاني التي لا تتحول فهي المعاني القائمة بالنفس التي تتصف بالثبات والتي تماثل البنى العميقة .

وفي سياق حديثه عن العلاقة بين اللفظ والمعنى أشار الرازي إلى أن من المعاني ما تقصر عنه الألفاظ وأن بعض المعاني لا يمكن تعريفها بالألفاظ فنحن ندرك الفرق بين الحلاوة الناجمة عن النبات والحلاوة الناجمة عن الطبرزد . وفي هذه الحالة فإنه لا سبيل إلى تعريف

---

(١) ما وراء النهر : المقصود ما وراء نهر جيحون بخراسان ، فما كان شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر ، وما كان غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم . وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيرا (ياقوت / معجم البلدان ج ٥ ص ٤٥) .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٦ ، والآيتان هما قوله تعالى :﴿ فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ سورة طه / الآيتان ١١ ، ١٢ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه التفرقة بين الحلاوتين باللفظ . وربما حصل لبعض الناس أحوال في نفوسهم ولم يتمكنوا من تعريف تلك الأحوال بالألفاظ . فنقول : إن الألفاظ قد قصرت عن إدراك المعاني (١) .

وقد بين الرازي أن السبب في الحالة الأولى أنه لم توضع لفظة للتفريق بين الحلاوتين . كما بين أن السبب في الحالة الثانية أنه يمكن أن يدرك الإنسان معنى معينا ولكن الآخرين لم يدركوه فيستحيل كذلك أن يضع لهذا لفظًا مخصوصًا ؛ لأن السامع ما لم يتصور المعاني ، امتنع أن يتصور أن اللفظ موضوع لهذا المعنى . ولهذا فإن كثيرا من المعاني لا يمكن تعريفها بالألفاظ (٢) .

ولذلك فإن المعاني عند الفخر الرازي ذات عمق وأبعاد وظلال قد لا تفي بها الحروف والألفاظ في بعض الأحيان ؛ وخصوصًا أن المعاني لا تتناهى في حين أن الحروف تتناهى ، كما أشرت من قبل . وفي هذه الإشارات التي ظهرت فيما طرح الفخر الرازي دليل على عمق العلاقة بين الفكر واللغة عنده . فالمعنى إذا لم يدركه المتلقي صعب على المتكلم وضع لفظ مناسب له .

فالإدراك أو الفكر هو الذي يحدد اللفظ والعملية معقدة يشارك فيها المتكلم والسامع والوسط الذي تحدث فيه العملية اللغوية .

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣٢ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

اللفظ والمعنى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

اللفظ والمعنى

يعتبر موضوع العلاقة بين اللفظ والمعنى شكلا من أشكال التجسيد المادي للعلاقة بين اللغة والفكر ، وأحد أوجه التعبير عن ثنائية المادة والوعي ، تلك الثنائية التي تقوم على علاقة تبادلية تكاملية ، لا يقوم أحد طرفيها دون قيام الآخر .

وسوف أتناول هذا الموضوع من خلال المحاور التالية إن شاء الله :

١ - محور العلاقة بين اللفظ المفرد والمعنى ؛ ويتضمن الحقيقة والمجاز ، والصوت والمعنى ، والاشتقاق ، والترادف .

٢ - محور العلاقة بين التركيب النحوي والمعنى : ويشمل أيضا : الحقيقة والمجاز المركب ونظرية النظم والعلاقة بين النحو والبلاغة .

٣ - محور السياق والمقام والمعنى : ويشمل المعنى السياقي اللفظي والمعنوي والمعنى المقامي : الاجتماعي والسياسي والثقافي وما إلى ذلك .

١ - اللفظ المفرد (الكلمة) والمعنى :

(أ) الحقيقة والمجاز :

يمكننا أن ننظر إلى تقسيم المعنى إلى حقيقي ومجازي بين منكر ومؤيد - كأساس من الأسس التي ارتكزت عليها معظم الاتجاهات اللغوية والفكرية ، التي ظهرت في سياق اللغات عموما ، وفي سياق اللغة العربية خصوصا .

وإذا كان تقسيم المعنى إلى حقيقي ومجازي موجودا في لغات العالم ؛ إلا أنه في اللغة العربية أخذ أبعادا وانطوى على منطويات أكثر مما في اللغات الأخرى ؛ وذلك لاتصاله بعقيدة الأمة ، وبالأحكام الشرعية المنبثقة عنها .

ولقد ظهرت في أوساط المتكلمين وعلماء اللغة وعلماء أصول الفقه في التاريخ الإسلامي ثلاثة اتجاهات كان لكل منها موقف من الحقيقة والمجاز [١] .

---

(١) لمزيد من التوسع ، انظر : مهدي صالح السامرائي - المجاز في البلاغة العربية .

وانظر : عبد العظيم ابراهيم المطعني : المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه ، - مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٨٥ .

وانظر : محمد بدري عبد الجليل : المجاز وأثره في الدرس اللغوي ، - دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية ١٩٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاتجاه الأول : كان يرى اللغة في جملتها مجازا ، وبالتالي فلغة القرآن الكريم معظمها مجاز .

والاتجاه الثاني : كان ينكر وقوع المجاز في اللغة ، ومن الطبيعي أن ينكر وقوعه في القرآن الكريم أصلا . وقد انبثق عن هذا الاتجاه اتجاه آخر لا ينكر وقوع المجاز في اللغة ولكنه ينكر وقوعه في القرآن الكريم .

والاتجاه الثالث : كان يرى وقوع المجاز ولكنه لم ير أن اللغة أغلبها مجاز وبالتالي اعتبر الحقيقة هي الأصل ، وأن المجاز هو الفرع الذي يستدعي القرائن والذي لا يكون إلا عند الاقتضاء .

وكان من أنصار الاتجاه الأول أبو علي الفارسي وابن جني وكذلك المعتزلة عموما ؛ فابن جني (ت ٣٩٢ هـ) أقام مذهبه في اللغة على المجاز . وقد اعتبر مصدر الضلال عن مقاصد الشريعة يرجع إلى الضعف في اللغة ؛ وضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم من خلال الآيات الموهمة التشبيه والتجسيم معتبرا الطريق إلى إدراك كنه ذلك وتأويله : اعتبار أن اللغة العربية " أكثرها على المجاز ، وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة " [1] ، وكذلك كان القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في الكشاف وغيرهما من المعتزلة الذين كانوا يأخذون بالمجاز على التوسع .

ومن الطبيعي أن تأخذ المعتزلة بالمجاز على التوسع ؛ إذ هي تتوسع في انتحاء منحى العقل طريقا الى المعرفة ؛ والمجاز هو انتقال المعنى من علاقته باللفظ الذي يمثل النقل في وجه من وجوهه إلى علاقة بمعنى يقتضيه التواضع والاصطلاح الاجتماعيان ويقرّه العقل من خلال القرينة .

وموضوع العلاقة بين الحقيقة والمجاز هو مظهر من مظاهر العلاقة بين الثابت والمتحول حيث يرى مثبتو المجاز اللغة متحولة متغيرة في حين يراها منكروه ثابتة غير متحولة ولا متغيرة . ومن الواضح أن ثمة صلة بين هذا وبين قدم الكلام وخلقه ، كما أنه من بعض إسقاطات الجدل حول العلاقة بين ذات الله وصفاته ، لذلك نرى المدارس تختلف في الحقيقة والمجاز اختلافها في مفاهيمها وتختلف في مفاهيمها اختلافها فيهما .

ولقد كان من أنصار الاتجاه الثاني ؛ الحنابلة عموما وابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) خصوصا أولئك الذين كانوا يرون أنه لا مجاز في

---

(١) ابن جني / الخصائص ج ٣ ص ٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة ، وبالتالي فالطبيعي عندهم أنه لا مجاز في القرآن الكريم مع شيء من التباين في مدى نكران المجاز في اللغة عموما وفي القرآن الكريم خصوصا .

كان ابن تيمية يرى اللغة عموما ثابتة غير متحولة ، ولغة القرآن الكريم هي كلام الله القديم الثابت ثبوت الذات الإلهية وصفاتها ؛ المنصوص عليها في القرآن الكريم نصا محددا والذي يشير القرآن نفسه إلى ما تتضمنه من معان .

والإمام ابن تيمية - باعتباره من أصحاب مذهب الاتباع (اتباع السلف) في التفسير - كان يرى مصدر الخطأ في الاستدلال راجعا الى اتجاهين : اتجاه يمثله قوم " اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها كالخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم ؛ وهم راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحق ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، وأن نظرهم إلى المعنى أسبق من نظرهم إلى اللفظ " (١) , واتجاه يمثله قوم " فسروا القرآن بمجرد ما يسوّغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب بكلامه ؛ من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزّل عليه ، والمخاطب به ، وهم بهذا راعوا مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به عندهم العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام . ثم إنهم كثيرا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة " (٢) .

ومن الواضح أن ابن تيمية في الصنف الأول قد عمّم القول في حمل الألفاظ على معان اعتقدها هؤلاء وأولئك سلفا ، فخلط بين اتجاهات متباينة ؛ وليس الأمر كذلك في الأحوال كلها ؛ إذ ما سمي حمل الألفاظ على معان محددة سلفا هو ضرب من التعويم ؛ فبعض هؤلاء الذين ظن أنهم يحملون الألفاظ على المعاني قد وجدوا في اللغة متسعا لهم ، وبذلك فحجتهم قائمة على الاستدلال بمقتضيات اللغة في معظم الأحوال ؛ وإن كان بعضهم قد توسع فيها أو خرج عليها أحيانا .

والخلاف في جوهره يدور حول هذه المقتضيات والقواعد والقوانين ومدى تسويغ الاعتماد عليها والركون إليها . وليس حول حمل اللفظ على المعنى قسرًا . والدليل على ذلك ما قاله في الصنف الثاني الذي أشرت إليه قبل قليل ، فالمسوغات التي يراها من كان من الناطقين بلغة العرب لا تكفي للنظر في النص القرآني المخصوص لفظًا المقيد بما يبين معناه ،

---

(١) ابن تيمية ؛ تقي الدين أبو العباس احمد بن عبد الحيم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - مقدمة في أصول التفسير
تحقيق الدكتور عدنان زرزور - الطبعة الأولى ، دار القرآن الكريم - الكويت ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ص ٨١، ٨٢ .

(٢) ابن تيمية / مقدمة في أصول التفسير ص ٨١ ، ٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال : " فكل لفظ موجود في كتاب الله وحديث رسوله ؛ فإنه مقيد بما يبين معناه ، فليس شيء من ذلك مجاز ، بل كله حقيقة " (١) .

وقد مثل على ذلك باعتبار لفظ القرية في قوله تعالى : { **واسأل القرية** } (٢) على الحقيقة وليس على المجاز كما ذهب كثيرون (٣) .

وهكذا فابن تيمية لا يعتبر ما اصطلح عليه العرب في لغتهم يشكل سندًا مناسبًا لتقرير المعنى في نص القرآن والحديث ، إذ المعنى عنده متعلق بالله الذي خلق اللغة وألهمها عباده ، وهي متعلقة - في النص القرآني - بظروف مخصوصة مقيدة بها كون النص القرآني منزلا من الله على رسوله ليبينه حسبما أمره الله ، ومن هنا جاءت فكرته عن اتباع السلف في التفسير .

ولكن الله سبحانه وتعالى أرسل كل رسول بلسان قومه ومن البدهي أن يتم بيان ذلك بقوانين اللسان المعني ومقتضياته . ومن الطبيعي أن المعنى يتجدد ويتطور بتجدد الزمان والمكان ؛ وهو مضمون صلاحه لكل زمان ومكان إذ فيه من الفعالية والحيوية ، ما يجعله قادرا على مواجهة القضايا التي تنشأ وتتغير ، بتغير الأزمنة والأمكنة .

والاتجاه الثالث كان له أنصار كثيرون وخصوصا بين أهل السنة والجماعة ، ولقد كان الأشاعرة عموما ، والفخر الرازي خصوصا ، يرون وجود المجاز في اللغة . وقد اتخذوا من المجاز منطلقا لتأويل الآيات والأحاديث ؛ المشعر ظاهرها بالتجسيم والتشبيه . وقد عقد الفخر الرازي على ذلك كتابه المعروف باسم " أساس التقديس " الذي ردّ فيه على المشبهة والمجسمة ؛ مؤوّلا الآيات والأحاديث المشعرة بذلك ؛ كما أشرت سابقا ، وكما سيمر مفصلا في الفصل الثالث إن شاء الله .

وقد عرف الرازي الحقيقة والمجاز فقال : " الحقيقة فعيلة من الحق . الحق في اللغة هو الثابت ، والباطل هو المعدوم ، ووزن الفعيلة قد يكون بمعنى المفعول وقد يكون بمعنى الفاعل ، والأول : المثبتة ، والثاني : الثابتة ، والياء في الفعيلة لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية ، فلا يقال : شاة أكيلة ونطيحة ، وأما المجاز فهو مفعل من الجواز الذي هو التعدي

---

(١) ابن تيمية / الإيمان - خرج أحاديثه محمد ناصر الألباني ، أشرف عليه زهير شاويش ، المكتب الاسلامي - بيروت - لبنان - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ٧٨ .

(٢) سورة يوسف / الآية ٨٢ .

(٣) انظر : ابن تيمية : الإيمان ص ١٠٧ .
وانظر في إنكار المجاز : الإيمان ص ٨٥ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، وفي عدم الحاجة إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة إذا عرف المعنى من جهة النبي (ص) انظر : الإيمان ص ٢٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في قولهم : جزت موضع كذا ، أو من الجواز الذي هو قسيم الوجوب والامتناع . وهو في التحقيق ؛ راجع إلى الأول لأن الذي لا يكون واجبا ولا ممتنعا كان مترددا بين الوجود والعدم . فكأنه ينتقل من الوجود إلى العدم أو من العدم إلى الوجود . فاللفظ المستعمل في غير موضوعه الأصلي شبيه بالمنتقل عن موضوعه فلا جرم سمي مجازا " (١) .

ولقد يكون تعريفه السابق للحقيقة والمجاز لا يختلف كثيرا عن تعريف غيره ، ولكن الأمر اللافت للنظر حقا هو ذلك ـ النقاش ـ الذي أداره الفخر الرازي حول المجاز ؛ وخصوصا النقاش الذي نلمسه حين تحدث عن جدل العلاقة بين الوجود والعدم ، في سياق جدل العلاقة بين الحقيقة والمجاز .

أي أن الفخر الرازي يفهم المجاز ضمن سياق ثنائية الحقيقة والمجاز وتلازمهما وليس من خلال الانتقال الذي قد يوحي بالانقطاع والهجر . ولذلك شدد الفخر الرازي على أهمية القرينة ، بل على أهميةالعلاقة بين المعنى المصطلح عليه مجازا والمعنى المصطلح عليه حقيقة .

ففي سياق بحثه عن حد (الحقيقة) و (المجاز) قال : إن " أحسن ما قيل فيه ما ذكره ابو الحسين وهو : أن الحقيقة ما أفيد بها ما وضعت له في أصل الاصطلاح الذي وقع التخاطب به . وقد دخل فيه الحقيقة اللغوية والعرفية والشرعية . والمجاز : ما أفيد به معنى مصطلح عليه غير ما اصطلح عليه في أصل تلك المواضعة التي وقع التخاطب بها ؛ لعلاقة بينه وبين الأول ، ثم أردف : وهذا القيد الأخير لم يذكره أبو الحسين ولا بد منه فإنه لولا العلاقة لما كان مجازًا ، بل كان وضعًا جديدًا " (٢) .

والمجاز عنده إما أن يقع في مفردات الألفاظ أو في مركباتها أو فيهما معًا .

أما المجاز المفرد فهو " إطلاق اسم السبب على المسبب . والأسباب أربعة : القابل : كقولهم : سال الوادي . والصورة : كتسمية اليد بالقدرة ، والفاعل كتسمية المطر بالسماء ، والغاية : كتسمية العنب بالخمر والعقد بالنكاح . أما المجاز المركب : فهو مجاز عقلي ؛ ومثاله في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ (٣) وقوله :

---

(١) الفخر الرازي / المحصول في علم أصول الفقه ج ١ ص ٢٨٥ .

وانظر في المجاز : ابن منظور ؛ ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، لسان العرب ، ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م ، ج ٥ ص ٣٢٦ ، باب : حوز (حزت الطريق ، وحاز الموضع حوزا وحؤوزا وحوازا ومجازا : سار فيه وسلكه) .

(٢) الرازي / المحصول ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) الزلزلة / الآية ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ **مما تنبت الأرض** ﴾ (١) ، فالإخراج والإنبات غير مستندين في الأمر نفسه إلى الأرض بل إلى الله تعالى ، وذلك حكم عقلي ثابت في الأمر نفسه فنقله عن متعلقه إلى غيره نقل لحكم عقلي لا للفظ لغوي ، فلا يكون هذا المجاز إلا عقليًا " (٢) .

لكن الفخر الرازي لم يكتف بتلك العلاقة الجدلية التلازمية التي تبقي على الحقيقة ماثلة حين انتقال المعنى إلى المجاز ، بل اعتبر المجاز غير غالب على اللغات ؛ وذلك في سياق رده على ابن جني ، وتضعيفه آراءه ؛ في أن المجاز غالب على اللغات حين مثل ابن جني على ذلك في الأفعال بقوله : قام زيد وقعد عمرو أي هذا الجنس من الفعل والجنس يتناول جميع الأفراد . " ومعلوم أنه لم يكن فيه جميع القيام لأنه لا يجتمع لإنسان واحد في وقت واحد ولا في مئة ألف سنة القيام كله الداخل تحت الوهم " (٣) .

وقد عد الرازي خطأ ابن جني وضعف قوله ، راجعًا إلى أنه ظن أن المصدر لفظ دال على جميع أشخاص تلك الماهية وهو باطل مبينا أن المصدر ؛ لفظ دال على الماهية ؛ أي على القدر المشترك بين الواحد والكل . " والماهية من حيث هي هي : لا تستلزم الوحدة ولا الكثرة وإذا كان كذلك ، كان الفعل المشتق منه لا دلالة له على الكثرة ولا على الوحدة " (٤) .

أما ابن جني فقد قال : " قولك : ضربت عمرًا مجاز من جهة أخرى لأنك إنما ضربت بعضه لا جميعه . وبهذا إذا احتاط الإنسان قال : ضربت رأسه ، وهذا أيضًا يكون مجازًا ؛ وذلك عندما إذا ضرب جانبا من رأسه فقط " (٥) .

وإذا كان الرازي قد أشار إلى المجاز المفرد كإطلاق لفظ الأسد على الشجاع وإطلاق لفظ الحمار على البليد وكذلك إلى المجاز المركب كقول الشاعرالصّلتان العبدي :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة وفر العشي

وإلى المجاز الذي يقع فيهما كقولك : أحياني اكتحالي بطلعتك . ذلك المجاز الذي اعتبره كثيرًا في القرآن والأخبار ؛ والذي لم ينتبه إليه الأصوليون ولخصه عبد القاهر ؛ فإن الرازي نفسه ، قد اعتبر المجاز غير غالب على اللغات كما أسلفت ، واعتبر المجاز أمرًا جائزًا تقتضيه ضرورة ولكن ، إن لم تكن ثمة ضرورة ، فالحقيقة عنده أولى . وهكذا فالحقيقة عند

---

(١) يس / ٣٦ .

(٢) الرازي / المحصول ج ١ ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

(٣) ابن جني / الخصائص ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٤) الفخر الرازي / المحصول ج ١ ص ٣٣٧ .

(٥) ابن جني / الخصائص جزء ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرازي هي الأصل والمجاز هو الفرع ؛ إلا أن تكون حقيقة لا تعضدها اللغة ، أو أن يكون مجازًا ، شاع حتى أصبح هو الحقيقة ؛ كالحقيقة العرفية التي انتقلت عن مُسمّاها إلى غيره بعرف الاستعمال . وغالبًا ما تكون في المجاز إذا اشتهر ، فأصبح استعمال الحقيقة مستكرهًا ، كحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . مثل إضافتهم الحرمة إلى الخمر ، وهي في الحقيقة مضافة إلى السكر . ومنها تسميتهم الشيء باسم شبيهه ؛ كتسميتهم حكاية كلام زيد بأنه كلام زيد ، ومنها تسميتهم الشيء باسم ماله به تعلق ؛ كتسميتهم قضاء الحاجة " بالغائط " الذي هو المكان المطمئن من الأرض وكتسميتهم (المزادة) بالراوية التي هي اسم الجمل الذي يحملها [١] .

وإذا كان الرازي قد أقر بوقوع المجاز فإنه قد أقر بوقوع النسخ في القرآن الكريم أيضًا ، قال : " النسخ عندنا جائز عقلاً واقع سمعًا خلافًا لليهود " [٢] .

ولكنه لم يقبل باستدلال مثبتي النسخ بالآية الكريمة : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ [٣] ، واعتبر هذا الاستدلال ضعيفا لأن : ما ، شرطية ، لا تدل على حصول النسخ [٤] .

ويبدو أن رأي الرازي هنا هو الضعيف إذ تتضمن الآية معنى الإثبات ، وعلى أية حال فالرّازي قد عوّل على الآيات التي تقوم على الإثبات مباشرة كقوله تعالى : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية** ﴾ [٥] . وقوله : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ [٦] . ولكن ، ما علاقة النسخ بالمجاز ؟ يعرض الرازي آراء طرحها من قبله في النسخ من مثل : " النسخ في أصل اللغة بمعنى إبطال الشيء والأصل في الكلام الحقيقة . وإذا ثبت كون اللفظ حقيقة في الابطال ، وجب ألاّ يكون حقيقة في النقل ؛ دفعا للاشتراك " . ومن مثل " والنسخ هو النقل والتحويل . ومنه نسخ الكتاب إلى كتاب آخر ؛ كأنه ينقله إليه ، أو ينقل حكايته . ومنه

---

(١) الفخر الرازي : المحصول ج ١ ص ٢٩٦ .

والمزادة : هي التي يحمل فيها الماء وتكون من الجلد ،

(انظر : ابن منظور : لسان العرب . باب زود و ، زيد ص ١٩٨ - ١٩٩) . وانظر في الفرق بين المجاز اللغوي والعقلي : عبد القاهر الجرجاني : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني أسرار البلاغة في علم البيان ، صححها على نسخة الاستاذ الشيخ محمد عبده السيد محمد رشيد رضا - المعرفة - بيروت ص ٣١٦ - ٣٤٢ .

(٢) الرازي / التفسير الكبير ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) البقرة / الآية ١٠٦ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٥) النحل / الآية ١٠١ .

(٦) الرعد / الآية ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تناسخ الأرواح ، وتناسخ القرون قرنا بعد قرن ، وتناسخ المواريث . وقال تعال : ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ (١) فوجب أن يكون اللفظ حقيقة في النقل ، ويلزم ألا يكون حقيقة في الإبطال دفعا للاشتراك " (٢) .

ثم يرد على هؤلاء وأولئك مبينا أن النقل أخص من الإبطال لأن مطلق العدم أهم من عدم يحصل عقيبه شيء آخر . وإذا دار اللفظ بين الخاص والعام كان جعله حقيقة في العام أولى (٣) .

فالعام عنده هو الحقيقة ، والخاص هو المجاز . فالأصل عنده الحقيقة والفرع المجاز ، فالنسخ عنده بما هو خاص ، وانتقال ؛ وجه من وجوه المجاز .

وقد يقر الرازي ببعض التأويلات البعيدة التي تطرحها الفرق والاتجاهات المختلفة ، ولكن ؛ شرط " أن يكون لهذه التأويلات وجه تخريج من اللغة كقول بعض الصوفية في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يا ليتني كنت ترابًا** ﴾ (٤) معناه : يا ليتني كنت متواضعا في طاعة الله ولم أكن متكبرًا متمردًا " (٥) .

لكنه لا يقر بالتأويلات التي لا وجه لها من التخريخ إلا على النادر ؛ وتخريجها على الحقيقة المشهورة ممكن .

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا** ﴾ (٦) : " في قوله : بردًا وجهان : (الأول) أنه البرد المعروف ، و(الثاني) البرد ههنا : النوم ، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي . قال الفراء : وإنما سمي النوم بردا لأنه يبرد صاحبه ؛ فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم . قال المبرد : ومن أمثال العرب : منع البرد البرد ؛ أي : أصابني من البرد ما منعني من النوم . وبعد أن عرض هذه الآراء قال الرازي : " واعلم أن القول الأول أولى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب " (٧) .

---

(١) الجاثية / الآية ٢٩ .

(٢) الرازي / التفسير الكبير ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٤) النبأ / الآية ٤٠ .

(٥) الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٢٧ .

(٦) النبأ / الآية ٢٤ .

(٧) الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ م ١٦ ص ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ب) الصوت والمعنى :

كانت العلاقة بين الصوت والمعنى محور دراسات عديدة ؛ قديمة وحديثة . وربما يكون مرجع ذلك إلى فكرة الباحثين عن نشأة اللغة ؛ أكانت نشأتها تقليدا لأصوات الطبيعة أم لم تكن ؟ فالذين رأوا أن اللغة نشأت تقليدا لأصوات الطبيعة من الطبيعي أن يروا أن ثمة علاقة ، والذين رأوا غير ذلك فإنهم لا يرون مثل تلك العلاقة .

ومن المعروف أن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥ هـ) قد عقد على فكرة العلاقة بين الصوت والمعنى مقدمة معجمه المعروف ب " العين " ، حيث قسم الحروف إلى مجموعات ، حسب مخارجها واستنبط بعض القوانين الصوتية (١) ، واعتبر أن بعض الحروف إذا دخلت بنية الكلمة حسّنتها كالعين والقاف لأنهما " أطلق الحروف وأضخمها جرسا " (٢) .

كما تحدث عن الحكاية المضاعفة كالصلصلة والزلزلة ، وكذلك أبنية المضاعف من الثلاثي المثقل بحرف التضعيف " فالمثقل مد والمضاعف ترجيع وتخفيف ، تقول : صرّ الجندب وصرصر الأخطب صرصرة . فكأنهم توهموا في صوت الجندب مدًا وفي صوت الأخطب ترجيعًا " (٣) .

وابن جني هو أيضا بحث في الأصوات وأثرها في المعنى وكان من المهتمين بهذا الموضوع وقد سار على نهج الخليل فأفرد له أبوابا كالباب الذي أفرده لتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني : كالأسف والعسف ، وحمس وحبس (٤) .

وباب في قوة اللفظ لقوة المعنى ، فمثلا معنى خشن دون معنى اخشوشن ، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو فيه ، كقولهم أعشب المكان . فإذا أرادوا الكثرة قالوا : اعشوشب . وكذلك قدر واقتدر وقطع وقطّع (٥) .

ومن هذا الباب في علاقة الصوت بالمعنى أن بعض الألفاظ أخذت من أصواتها كتسميتهم " القطا " بهذا الاسم لشبهه بصوته ، وكذا اللقلق ومنه : قضم : لأكل اليابس وخضم : لأكل الرطب كالبطيخ وما إلى ذلك .

---

(١) انظر : الخليل بن احمد الفراهيدي ـ العين ، تحقيق د . عبد الله درويش . ط ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ، مطبعة العاني بغداد ، ج ١ ص ٥٢ ـ ٦٧ .

(٢) الخليل / العين ١/٦٠ .

(٣) المرجع السابق نفسه ١/٦١ .

(٤) ابن جني / الخصائص ج ٢ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٥) انظر : ابن جني / الخصائص ج ٣ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقصارى القول : إن كلاً من الخليل وابن جني قد عقد على العلاقة بين الصوت والمعنى بعض أسرار العربية وخصائصها ؛ لأن دلالة اللفظ على مدلوله في مثل هذه الألفاظ - عندهما - ذاتية .

لكن الإمام فخر الدين الرازي - وإن كان بحث في العلاقة بين الصوت والمعنى - إلا أنه لم يتفق والنتائج التي توصل إليها الخليل وابن جني حيث كان الفخر الرازي يعتبر العلاقة بين اللفظ والمعنى اعتباطية وليست ذاتية إلا في بعض الحالات التي ذكرت على الرغم من وجود بعض الحالات التي تبدو فيها علاقة الدّال بمدلوله ذاتية كالتي ذكرها ابن جني في الخصائص وأعادها الفخر الرازي (١) .

كما أن الفخر الرازي قد رفض النظرية القائلة : إن الأصوات أجسام مادية ، وجاء ذلك في معرض حديثه عن ابن سينا والنظّام فقد ذكر أن ابن سينا قال في كتاب الأوسط عن تعريف الكلمة : " إنها صوت مفرد دال على معنى بالوضع " وهذا غير جائز ؛ لأن الصوت مادة ، واللفظ جنس ؛ وذكر الجنس أولى من ذكر المادة .

والسبب الذي طرحه الرازي : أن الصوت ينقسم إلى صوت الحيوان وغيره وصوت الإنسان هو أيضا ينقسم إلى ما يحدث من الحلق وإلى غيره . والحادث من الحلق : إما أن يكون مختصا بأمثال الحروف ، وإما أن يكون معبرا عن أصوات " كالتي تحدث عند الأوجاع والراحات والسعال وغيرها ؛ فالصوت جنس بعيد واللفظ جنس قريب ، وإيراد الجنس القريب أولى من الجنس البعيد " (٢) .

أما بالنسبة إلى قول النظّام عن الصوت : إنه مادة فقد بين الفخر الرازي أن مصدر ذلك ماتوهموه من قوله : إن سبب حدوث الصوت تموّج الهواء ؛ فظن بعضهم أنه يقول : إنه عين ذلك الهواء .

وقد أشار إلى رأي الشيخ الرئيس ابن سينا في حدّ الحرف الذي هو هيئة عارضة للصوت يتميز بها عن صوت آخر في الخفة والثقل تميزا في المسموع . كما قسم الحروف إلى صوائت أو مصوتة : وهي حروف المدّ واللّين التي لا يمكن الابتداء بها ، وصوامت : وهي ما عداها . والصوائت أو المصوتة من الهيئات العارضة للصوت . أما الصوامت ؛ فمنها ما لا يمكن تحديده كالياء والتّاء والدّال والطّاء . وهي لا توجد إلا في الآن الذي هو آخر زمان حبس النفس وأوّل زمان إرساله " (٣) .

---

(١) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٢٦ .

(٢) الفخر الرازي / التفسير الكبير ، الطبعة الثالثة ، دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان ، ج١ ص ٢٩ .

(٣) الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٢٩ دار احياء التراث العربي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنه عاد وذكر أن النظّام قد احتجّ في إثبات قوله : إن الكلام جسم ، بالآية الكريمة ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم** ﴾ (١) مرتكزا على أنه تعالى وصف الكلمة ، بأنها تخرج من أفواههم ، والخروج حركة ؛ والحركة لا تصح إلاّ على الأجسام . ثم أجاب الفخر الرازي عن ذلك مبينا أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق . فلما كان خروج النفس سببا لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة (٢) .

ولقد كنت أشرت إلى الحقيقة العضوية للغة عند الإمام فخر الدين الرازي (٣) ، ولست في حاجة إلى إعادة ذلك . لكنّ الذي أودّ أن ألفت النظر إليه هنا : أن الإمام الرازي على الرغم من بحثه في الحقيقة العضوية للغة واقترانها بالظاهرة الفيزيائية بمستوياتها : التصويت - التقطيع - الانتظام . وخروج ذلك من حيّز ذي مخارج تميزا للغة عن الأصوات الأخرى غير اللغوية ، إلاّ أنه ظل ينظر إلى اللغة نظرة تميّزها عن الأجسام والمواد ، فهي تخرج من جهاز عضوي ، ولكنها ليست عضوية . وليس أدلّ على ذلك من رفضه لفكرة جسمية الكلام التي أشار إليها كل من ابن سينا والنظّام ، كما أسلفت .

(جـ) الاشتقـــاق :

أحسب أن ظاهرة الاشتقاق من أكثر الظواهر التي حظيت باهتمام الدارسين في العربية وغيرها .

وإذا كان الاشتقاق موجودا في كثير من لغات العالم ؛ إلاّ أنه في العربية أوسع وأبرز وأكثر انتظاما حتى تكاد بنية الكلمة ترتكز على الاشتقاق في تحولاتها بين الجذور والفروع ، وبذلك يمكن أن يشكل الاشتقاق سندا منهجيا لدراسة الوحدات المعنوية في اللغة ، التي تتكون منها الألفاظ ، والاشتقاق يزيد من حيوية اللغة التي تقوم عليه .

واللغات التي لا تقوم على الاشتقاق كاللغة الصينية التي تعتمد المقاطع الصوتية مثلا يحتاج الدارس إلى معرفة كثير من مقاطعها كي يتعرف أصولها التي تقوم عليها .

ونظام الاشتقاق كنظام الأفلاك يتكون من مركز ومحيط ، ولذلك فهو يجعل للغة نسقا يساعد على فهمها والتعرف إلى بناها المختلفة . والاشتقاق المعروف المشهور كاشتقاق صيغ الأفعال واشتقاق اسم الفاعل واسم المفعول وما إلى ذلك . أشار إليه الفخر الرازي في مؤلفاته وسمّاه كما سماه ابن جني : الاشتقاق الأصغر . لكنّ الاشتقاق الذي لفت نظر دارسي اللغة فعلا ، ويحتاج إلى أدلة تدل عليه ، كما يحتاج إلى تأمل وفضل نظر هو الاشتقاق المعروف

---

(١) الكهف / الآية ٥ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ج ٢١ ص ٧٩ .

(٣) انظر الفصل الأول ص ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب " الاشتقاق الأكبر " الذي يقوم على نظام التقليبات والذي يعني أن الكلمة مهما قلبت حروفها بقيت الصيغ المتكونة تستمد مدلولها من المعنى الأصلي نفسه ومنها ما هو مستعمل ومنها ما هو مهمل .

وكان الخليل بن أحمد قد أشار إليه ، وفصله أبو الفتح عثمان بن جني وقد أشار الخليل إلى أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو : قد ، دق ، شد ، دش " . والكلمة الثلاثية على ستة أوجه وتسمى مسدوسة : والرباعية على أربعة وعشرين وجها والخماسية على مئة وعشرين وجها كما أشار إلى المستعمل والمهمل (١) .

وابن جني هو أيضًا قال مثل قول الخليل ولكنه توسع فيه ، وجعله من أهم خصائص العربية . وقد بدأ به كتابه " الخصائص " في سياق التفريق بين الكلام والقول . كما اعتبره يتجاوز قدر الاشتقاق الأصغر ويعلوه إلى ما فوقه . قال : " إن معنى قول (ق . و . ل) أين وجدت وكيف وقعت .. إنما هو للخفوق والحركة ، وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شيء منها والأصل الأول (ق و ل) وهو القول والثاني (ق ل و) منه القلو : حمار الوحش ؛ وذلك لخفته وإسراعه (٢) . وقد اعتبر ابن جني هذا المدخل صعبا وعر المسالك ولكنه ثابر عليه ولم ينكره مشيرا إلى أن أبا علي كان يراه ويأخذ به (٣) .

وإذا نحن تتبعنا ما قاله الإمام فخر الدين الرازي في هذا الباب وجدناه قد تابع الخليل وابن جني فأشار إلى ما أشار إليه ابن جني وأعاد الأمثلة التي ذكرها ابن جني وأضاف إليها أمثلة أخرى مثل (ل. غ . و) (غ. و .ل) (و . غ. ل) .لكنه اعتبر رعاية هذا النوع من الاشتقاق صعبة وكأنها لا يمكن رعايتها إلاّ في الكلمات الثلاثية لأن تقاليبها لا تزيد على الستة . أما الرباعيات والخماسيات فإنها كثيرة جدا وأكثرها تكون مهملة فلا يمكن رعاية هذا النوع من الاشتقاق فيها إلاّ على سبيل الندرة . كذلك ذهب إلى أن الكلمات الثلاثية قلّما يوجد فيها ما يكون جميع تقاليبه الممكنة مستعملة وأنه في الأكثر يكون بعضها مستعملا وبعضها مهملا (٤) .

والرازي كما هو واضح يهتم بعلم المعاني أكثر من اهتمامه بعلم الأصوات . فهو يقيم دراساته على أساس المعاني وليس على أساس الأصوات ؛ إذ هو لا يرى ارتباط اللفظ بمدلوله إلا في حالات نادرة ؛ لأن المعنى عنده ـ اعتباطي وليس ذاتيا . وخلاصة ذلك أنه يرى

---

(١) انظر : الخليل / العين ٦٦/١ .

(٢) ابن جني / الخصائص / ج ١ ص ٨ .

(٣) انظر : الخصائص / ج ١ ص ٢١ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاشتقاق الأكبر حيث يوجد ذلك ، ولكنه لا يتعسف تطويع الألفاظ وتقاليبها للمعاني المفترضة في حين لم يتوقف ابن جني عند صعوبتها أو غرابتها أو كثرة المهمل فيها لأنه كان يراها سرًا من أسرار العربية لأنه كان يميل إلى الصوتيات كما كان حال الخليل .

وعلى أية حال ، فالاشتقاق لا يقتصر على الجانب الصوتي ، بل يتسع إلى الجانب المعنوي . فهو في الحقيقة أصوات تتحول إلى ركيزة منهجية لدراسة الوحدات المعنوية في بنية الكلمة .

فالمعنى الصادر عن الاشتقاق بشكليه : الأصغر ، والأكبر هو دوران في فلك الوحدة المعنوية المشكلة لجذور الألفاظ وهو جزء من دراسة حيوية اللغة ، والنظر إليها نظرة حركية ، لا سكونية . وهو انتقال وحركة ولكن في نطاق المركز ، وهذا ما يتفق ونظرة الفخر الرازي إلى اللغة ؛ ليس في الاشتقاق فحسب ، بل في المجاز أيضا .

فاللغة عند الفخر الرازي ليست جامدة ، بل خلاّقة ، ولكنها ليست قوة طاردة ، بل تجمع في ثناياها بين الطرد والجذب . في نطاق العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وبين المعنى الأصلي والمعنى العقلي الحقيقي منه والمجازي ، وبين المعنى ومعنى المعنى .. وما إلى ذلك .

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى اللفظ المفرد والمعنى وبيّن أن فصاحة اللفظ لا تكون إلا باعتبار مكانها من النظم (١) ، كما رد على القائلين بفصاحة اللفظ وتلاؤم الحروف لأن ذلك يخرج الفصاحة من حيز البلاغة ، ورفض جعل ذلك العمدة في المفاضلة ولكنه لم يرفض جعله وجها من الوجوه (٢) من خلال السياق العام والنسق الذي تأتي عليه الجملة من خلال النظم ، كما تحدث عن المجاز والاستعارة ولكناية ، وقد أكد أن الجميع أجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلا وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة ولكن فيما تحدثه من معنى في النفس وليس في اللفظ نفسه ، كما بيّن الفروق الناشئة من حسن التركيب بين لفظ ولفظ (٣) ، وبهذا يمكن اعتبار الفخر الرازي امتدادا متميزا لعبد القاهر الجرجاني في نظرته إلى اللفظ .

---

(١) انظر : عبد القاهر الجرجاني / دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحح أصله الاستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي - علق حواشيه محمد رشيد رضا . الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م ، ص ٣٦ .

(٢) انظر : عبد القاهر الجرجاني / دلائل الإعجاز ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٥ - ٦٢ .

All rights reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي عصرنا الحاضر أشار دوسيسير إلى العلاقات القائمة بين الدّالّ والمدلول حين اعتبر العلاقة اللسانية لا تربط الشيء باسمه بل التصور بالصورة السمعية ، والصورة السمعية ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف بل هي الدفع النفسي لهذا الصوت [١] لأن العلاقة بين الدالّ والمدلول اعتباطية ، لأنها هي مجموع ما ينتج عن ارتباط الدال بالمدلول ، فلا فرق عنده بين كلمة Soeur (أي أخت) وبين Sister [٢] كما تحدث عن العلاقات التركيبية والترابطية . والأولى تتشكل من الوحدات المتعاقبة ، فالعبارة لا تكتسب قيمتها إلا بتقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها أو الإثنين معا [٣] .

كما تحدث عن العلاقات الترابطية حيث تتسم الكلمات بشيء مشترك وتترابط في الذاكرة مشكلة مجموعات تسودها علاقات مختلفة ، فكلمة enseignement أي تعلم مثلا ، تجعل قافلة كلمات أخرى تنبثق في الذهب لا شعوريا renseigner enseigner (أعلَمَ ، علّمَ) أو changement ، Armement (تغيير ، تسليح ...الخ) [٤] وبهذا يمكن القول : إن ما جاء به فخر الدين الرازي في مجال اللفظ المفرد والمعنى استمرار لمن قبله يمكن أن يشكل مقدمة لما جاء به علماء اللغة في العصر الجديث وإن كان دوسيسير يركز على جوانب الترابط النفسي الناجمة عن الصوت . وبذلك فهو يقترب مما جاء به ابن جني في هذا المجال أكثر من اقترابه من الرازي في حين أن همبولد وتشومسكي يقتربان مما جاء به الفخر الرازي في هذا المجال .

وعلى الرغم من تأثير الفخر الرازي في غير واحد من الذين جاءوا بعده من علماء اللغة والبلاغيين والمفسرين إلاّ أن هذا التأثر لم يخل من بعض الانتقادات أكتفي بالإشارة إلى نماذج منها هنا وخصوصا ما يتعلق باللفظ المفرد على أن أذكر نماذج أخرى في موضوع التركيب النحوي والمعنى .

---

(١) انظر : فريدناند دوسيسير / محاضرات في الألسنية العامة ، ترجمة يوسف غازي بجيد النصر ، دار النعمان للثقافة - جونية - لبنان - ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) انظر : دوسيسير / محاضرات في الألسنية العام ص ٨٩ - ٩٥ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ص ١٤٩ .

(٤) انظر : دوسيسير / محاضرات في الألسنية العامة ص ١٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الملحوظات مثلا ما لاحظه أبو حيان الأندلسي حين فسر قوله تعالى من سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) فقد أورد أن الفخر الرازي قد رأى أن في تقليب (مالك) مهمل ، ثم ذكر أن ذلك ليس صحيحا (١) .

ومنها ما ذكره يحيى بن حمزة العلوي من أن الرازي قد زعم أن إطلاق الألفاظ الشرعية على معانيها جاء على جهة المجاز من المعاني اللغوية التي تدل عليها . أي أنها دالة على المعاني اللغوية بحقائقها وعلى المعاني الشرعية بمجازاتها . والمختار عند يحي بن حمزة أن الشرع قد نقلها إلى إفادة معان أخر . وأنها غير خالية عن الدلالة على معانيها اللغوية وأنها صارت حقائق في معانيها الشرعية (٢) .

ومنها ما ذكره يحيى بن حمزة العلوي أيضا من أن الرازي قد زعم أن المجازات المركبة كلها عقلية ، وقد بين العلوي أنها لغوية وليست عقلية (٣) .

(د) الترادف :

هو وجود لفظين أو أكثر لمعنى واحد . وهناك من أنكر الترادف وزعم أن ما يظن من المترادفات هو في الحقيقة من المتباينات ؛ التي تكون لتباين الصفات أو لتباين الموصوف مع الصفات . ومن منكري الترادف ثعلب وتلميذه ابن فارس اللذان كانا يريان أن التباين يكون بين اسم الذات ، واسم الصفة (٤) .

وقد رد الإمام فخر الدين الرازي على منكري الترادف من حيث وقوعه في اللغات المختلفة ؛ وهو أمر معلوم بالضرورة وكذلك من حيث جوازه عقلا ؛ وهو معلوم بالضرورة أيضا ، ومن حيث وقوعه فعلا في لغة واحدة ، مثل الأسد والليث ، والحنطة والقمح . ففي حين يعتبر منكرو الترادف لفظ الأسد اسم ذات والألفاظ الأخرى صفات له ، ولفظ السيف اسم ذات والأخرى صفات له ، فإن الفخر الرازي قد أكد وقوع الترادف كما بين الداعي له واعتبر كثيرا مما أورده منكرو الترادف لا يشهد به عقل ولا نقل (٥) .

---

(١) انظر : أبو حيان الأندلسي ؛ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، البحر المحيط ، مطبعة جديدة - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م ، ج ١ ص ٣٧ .

(٢) انظر : يحيى بن حمزة العلوي اليمني / الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م - ص ٥٦

(٣) انظر : المرجع نفسه ص ٧٦ .

(٤) انظر : ابن فارس / الصاحبي ص ٩٦ ، ٩٧ .
وانظر : الفخر الرازي / المحصول ج ١ ص ٢٥٣ .

(٥) انظر الفخر الرازي / المحصول ، ج ١ ص ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الداعي إلى الترادف الذي رآه الفخر الرازي فقد قسّمه إلى قسمين :

الداعي الأقل : وهو التسهيل والإقدار على الفصاحة ، والتمكين من تأدية المقصود بإحدى العبارتين ، عند نسيان الأخرى (١) .

والداعي الأكثر : وهو اصطلاح إحدى القبيلتين على اسم لشيء غير الذي اصطلحت عليه القبيلة الأخرى ، ثم اشتهار الوضعين بعد ذلك (٢) .

وقد يبدو أمر الترادف - بين المنكرين والمثبتين - هيّنًا ، لكنّ الأمر يختلف حين نرى النتائج التي تترتب على كل من المنحيين في فهم النصوص واستنباط العقائد والأحكام .

فالإمام الفخر الرازي - مثلا - بوصفه مثبتًا للترادف يرى أن للقرآن الكريم أسماء كثيرةً أولها : " **الكتاب** " ، كما جاء في أول سورة البقرة : ﴿ **ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ (٣) ، قال : " وهو مصدر ، كالقيام والصيام ، اتفقوا على أن المراد بالكتاب : القرآن " (٤) ، ثم جاء بمعاني القرآن مبينًا الوجوه التي جاءت عليها . وثانيها : **القرآن** :﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا** ﴾ (٥) ﴿ **إنا جعلناه قرآنًا عربيًا** ﴾ (٦) ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾ (٧) ﴿ **إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ (٨) .

وقد أورد قولين للمفسرين للقرآن : الأول ؛ قول ابن عباس : القرآن والقراءة واحد . الثاني قول قتادة : إنه مصدر من قول القائل : قرأت الماء في الحوض ، إذا جمعته . وقال سفيان بن عيينة : سمّي القرآن قرآنا ؛ لأن الحروف جمعت فصارت كلمات ، والكلمات جمعت فصارت آيات ، والآيات جمعت فصارت سورًا ، والسور جمعت فصارت قرآنًا ، ثم جمع فيه علوم الأولين والآخرين . ثم علّق الرازي على ذلك كله قائلا : " فالحاصل أن اشتقاق لفظ القرآن ، إما من التلاوة ، أو من (الجمعية) " (٩) .

---

(١) انظر : الفخر الرازي ، المحصول ج١ ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) البقرة / الآيتان ١، ٢ .

(٤) الرازي / التفسير الكبير ج٢ ص ١٥ .

(٥) الإسراء / الآية ٨٨ .

(٦) الزخرف / الآية ٣ .

(٧) البقرة / الآية ١٨٥ .

(٨) الإسراء / الآية ٩ .

(٩) الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثها : الفرقان ؛ لأنه كان متفرقًا ، أو لأنه يفرق بين الحق والباطل . وقيل : الفرقان هو النجاة ، فبالقرآن وجدوا النجاة .

ورابعها : الذكر ، **وخامسها :** التنزيل ، **وسادسها :** الحديث ... الخ [١] .

والفخر الرازي ؛ بحكم اعتقاده وقوع الترادف ، وجد هذه الأسماء أسماءً لمسمّى واحد هو القرآن الكريم ، كما فعل معظم المفسرين وعلماء اللغة العرب ، لكنّ إنكار وقوع الترادف يؤدي إلى جعل معنى كل لفظ مختلفًا عن معاني الألفاظ الأخرى وبالتالي سيؤدي إلى نتائج تترتب على هذا الفهم .

كما حدث في كتاب الدكتور المهندس محمد شحرور الذي سمّاه " الكتاب والقرآن " ـ قراءة معاصرة ـ والذي استند فيه إلى مذهب ابن فارس في عدم وقوع الترادف والاعتماد على جذور الكلمات التي لها معنى ثابت تدور حوله الصيغ المتعددة للكلمة .

فعلى الرغم من أن الكتاب يعتمد المنهج اللغوي الذي حدده الدكتور جعفر دك الباب الذي قدّم للكتاب . والدكتور جعفر يعتمد البنيوية الوظيفية لمدرسة براغ اللغوية استنادا إلى الخط العام اللغوي الذي يجمع بين أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني وعبد القاهر الجرجاني . إلا أن اعتماد الكتاب منهج ابن فارس جعله يقف عند حدود المقاييس التي جعلها ابن فارس للغة ، وبالتالي أدى إلى النتائج الخطيرة التي توصل إليها في فهم معنى ألفاظ مثل : القرآن والكتاب والفرقان والذكر والحديث وكذلك مصطلحات تدخل في صلب العقيدة والشريعة كالسبع المثاني والكتاب المبين ، وأم الكتاب ، والمحكم والمتشابه ، والنبوة والرسالة ، والقضاء والقدر والإنزال والتنزيل ، وما إلى ذلك [٢] .

وفكرة نفي الترادف فكرة دقيقة تحتاج إلى بحث ونظر كبيرين ، وهي وإن كان لها ما يبررها في بعض ما يبدو من المترادفات ، إلا أنها لا يجوز أن تعمم على الألفاظ كلها التي تتسع مترادفاتها وتتنوع باتساع التجمعات البشرية وتنوع أدائها اللغوي وقدراتها العقلية وأحوالها النفسية والاجتماعية ومستوياتها الثقافية .

ومنكرو الترادف يعتمدون الاشتقاق ركيزةً لموقفهم ، فهم يعتبرون ما يسمى المترادفات ، صفات مشتقة من أوضاع متعددة مختلفة متنوعة يكون عليها الاسم الأصلي (اسم الذات) . لكن هذا الأمر إن جاز في بعض الألفاظ إلا أنه لا يجوز في كثير من الألفاظ الأخرى حيث تكون الألفاظ مختلفة في جذورها ولا تدل على أحوال معينة لاسم الذات الذي

---

(١) انظر : التفسير الكبير ج ٢ ص ١٦ .

(٢) انظر : د. محمد شحرور / الكتاب والقرآن (قراءة معاصرة) ، الطبعة الخامسة ـ دار الأهالي ـ دمشق ص ٥٦ ، ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو الاسم الأصلي بل هي كلمات أخرى لا تشترك واللفظ الأصلي إلا في المعنى الذي يؤديه بناء على ما اصطلح عليه الناس وتعارفوا وذلك اعتمادا على أن العلاقة بين الدالّ والمدلول اعتباطية وليست ذاتية . كما أن جذور الألفاظ لا تشكل دلالة كافية على معنى اللفظ المفرد ؛ ومن الطبيعي ألاّ تشكل الدلالة النهائية في السياق العام للجملة أو الفقرة ، أو النص . فالمعنى في النهاية تتضافر على تشكيله ، الدلالة المعجمية والتاريخية والسياقية والمقامية .

التركيب النحوي والمعنى (النظم)

كنت قد طوفت في الصفحات السابقات بما يتعلق باللفظ ومعناه ، وها أنذا أنتقل إلى التركيب النحوي والمعنى المعروف باسم " نظرية النظم " . لكن هذا الانتقال ليس أمرا عاديا ، أنتقل فيه من وجه من وجوه الدراسة إلى وجه آخر ؛ بل هو انتقال إلى آفاق جديدة رحبة في علم اللغة ، أحدثت تغييرًا كبيرًا في المفاهيم اللغوية ، قديمًا ، وحديثًا .

وكان الجاحظ قد تحدث عن النظم في اللغة ؛ ولكنّ أول من وضع أسس هذه النظرية وقواعدها وصاغها على شكل نظرية لغوية ؛ العالم الجليل الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ، وخلاصة هذه النظرية : أن اللفظ المفرد لا يكتسب معناه الفعلي إلا مقترنا بغيره من الألفاظ من خلال التركيب النحوي للجملة العربية ، وأن المعنى الحقيقي لا يأتي من معنى اللفظ المفرد ، ولا من مجموع معاني الألفاظ المكونة للجملة . ولكن المعنى ، هو شيء آخر جديد يتكون من تلاقي هذه الألفاظ في الجملة ، وهذا يعني أن المعنى يتشكل من النسق الذي تتكون منه الجملة النحوية لا من الألفاظ متفرقة أو مجتمعة . وهذا النسق اللفظي الذي تتكون منه الجملة النحوية يأتي منسجما والنسق المعنوي الذي يتكون في ذهن المتكلم حين يتكلم أو الكاتب حين يكتب . ولهذا تعتبر الجملة فصيحة بقدر ما يكون فيها من دقة وضبط وتناسق . والدقة والضبط والتناسق تشمل التقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف والإضمار .. وما إلى ذلك . أي وضع الكلم المناسب للمعنى المناسب ، واتساق ذلك كله ، وما تقتضيه قواعد النحو . وبهذا لم تعد الفصاحة راجعة إلى اللفظ بل إلى النظم في سياق الجملة . كما أن البلاغة لم تعد بلاغة الكلمات وإنما بلاغة الفصاحة والبيان التي ليست سوى وضع الكلام في مواضعه التي تقتضيها القواعد النحوية .

أما بلاغة اللفظ فهي تزيد ذلك النسق جمالا وبهاء ورواء حين تأتي متساوقة والنسق اللغوي . وبهذا أحدثت هذه النظرية تغييرا شاملا في مفهوم المعنى حين نقلته من اللفظ إلى النظم ، وفي مفهوم البلاغة حين نقلتها من الألفاظ إلى التراكيب النحوية أيضا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه العلاقة بين الفصاحة والنظم في سياق البيان القرآني ، هي التي جعلت الإمام عبدالقاهر الجرجاني يعتبر النظم مدار الإعجاز القرآني ، وهي نفسها التي جعلت الإمام فخر الدين الرازي يتبنى وجهة نظر عبد القاهر ، ويضبطها ضمن ضوابط منهجية ، ويوسعها ويعمقها ، ويعتبرها مدار الإعجاز القرآني أيضا . وهي التي جعلت الإمام السكاكي وغيره يحذون حذو الإمام فخر الدين الرازي ويضبطون مفاهيمهم اللغوية بشكل عام على خطاه . وهي نفسها التي جعلت علماء اللغة في العصر الحديث يحتفون بنظرية النظم ويجعلونها عماد دراساتهم اللغوية ويتوسعون فيها ويتعمقون فيما يعرف بنظرية السياق والمقام التي سترد في صفحات لاحقات من هذا الفصل إن شاء الله .

وما دام عبد القاهر الجرجاني هو الذي وضع أسس هذه النظرية ، فما الذي وضعه من أسس ؟ وكيف ساق نظريته ؟ وما أدلته التي استدل بها ؟

أشرت سابقا إلى أن عبد القاهر ، قد عقد مجامع نظريته على إعجاز القرآن الكريم . وكان ذلك من خلال التساؤل عن هذا الإعجاز ؛ أهو على اللفظ ؟ أم على المعنى ؟ أم على انتظام الكلام وتعاقبه ، حسب انتظام المعاني في النفس ؟ وكان هذا التساؤل هو المدخل الذي دخل عبد القاهر من خلاله ، إلى صوغ ما صاغ من معالم نظرية في هذا الباب .

ولقد فرّق عبد القاهر بين انتظام الحروف في الكلمة ، وانتظام الكلمات في الجملة ، لأن انتظام الحروف في الكلمة ، هو تواليها في النطق ، وليس تواليها في المعنى . وليس هناك فرق بين معناها على هذا النظام ومعناها ، إن غُيِّر هذا النظام ؛ قال : " فلو أن واضع اللغة كان قد قال " ربض " مكان ضرب ، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد " (١) .

أما نظم الكلمات فإنه اقتفاء للمعاني وترتيب للألفاظ ، حسب ترتيب المعاني في النفس ، قال : " فهو إذن نظم يعتبر منه حال المنظوم وبعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذي معناه ، ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق " (٢) .

ومعرفة الفرق بين النظمين مفيدة ، في معرفة الهدف من نظم الكلمات في الجملة ، وهو ليس توالي ألفاظها في النطق فحسب بل تناسق دلالتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل (٣) . فاللفظ عنده تبع للمعنى والكلمات بالتالي تترتب في النطق حسب ترتب معانيها في النفس (٤) .

---

(١) عبد القاهر الجرجاني / دلائل الإعجاز ص ٤٠ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) انظر : الجرجاني / دلائل الإعجاز ص ٤١ .

(٤) انظر : المرجع نفسه ص ٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أجاز الجرجاني ، أن يكون لتلاؤم الحروف أثر في الفصاحة ، أو في بعض جوانبها ، ولكنه رفض أن يكون التلاؤم ، هو الفصاحة بعينها ؛ لأن نظم المعاني هو الأصل . وقد أورد في هذا السياق بيت الشعر المشهور في كتب البلاغة والذي يمثل به على تنافر الحروف وتكرارها ، وهو :

وقبر حرب بمكان قفر (وليس) قرب قبر حرب قبر

وبعد ذلك رد على من قالوا : إن القدماء قسموا الفضيلة بين اللفظ والمعنى بأن أشار إلى أن ذلك كناية عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ [١] .

واعتبر أن وصف اللفظ بأنه متمكّن ، أو قلق ناب ، مما يؤيد دعواه ؛ فالصفة هنا مستعارة من المعنى . وخلص من ذلك كله إلى أن النظم هو " أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه ، وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ؛ فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ؛ فلا تخل بشيء منها " [٢] .

وقد بيّن الجرجاني الوجوه ، والفروق في كل باب من أبواب النظم ؛ كالمبتدأ والخبر ، والشرط والجزاء ، والفصل والوصل ، والتعريف والتنكير ،والتقديم والتأخير ، والحذف، والإضمار ، والإظهار ، وما إلى ذلك . ومن جانب آخر فإن الجرجاني لم يقف عند مقتضى النحو في ترتيب الجملة فحسب ، بل تحدث عن الاستعارة ؛ ولكنه تحدث عنها باعتبارها مزية مقرونة بانتظام الكلم ، لا بكونها استعارة ، وقد مثل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **واشتعل الرأسُ شَيْبًا** ﴾ [٣] الذي جاءت فيه الاستعارة ، غاية في الفصاحة لانتظامها ، ولإفادتها العموم باشتعال الرأس ؛ ثم تخصيصه بالشيب .

فالاستعارة هنا متعلقة بالتركيب النحوي من ذكر الفاعل : الرأس ثم التمييز (شيبا) وقد دلل على أن المزية ليست في الاستعارة ، إذ لو كانت كذلك لتساوت مع قولنا (اشتعل شيب الرأس) الذي تغير فيه النظم ولم تتغير الاستعارة .. كما مثل على ذلك بقوله تعالى : ﴿**وفجرنا الأرض عيونا** ﴾[٤] حيث فرق بينها وبين قولنا (فجرنا عيون الأرض) " [٥] .

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص ٤٦ ، ٤٧، ٤٨ .

(٢) الجرجاني / دلائل الإعجاز / ص ٦٤ .

(٣) مريم / الآية ٤ .

(٤) القمر /الآية ١٢ .

(٥) الجرجاني / دلائل الإعجاز ص ٧٩ - ٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الواضح أن الإمام عبد القاهر الجرجاني يربط بين اللغة والفكر ، كما يربط بين اللفظ والمعنى ، ويرى الجملة في اتساقها وتناسقها ، لا في ألفاظها مجردة ، ولا في معاني هذه الألفاظ دون اتساق ، وأن النسق اللفظي يتبع النسق المعنوي . وهذا هو الذي يسميه بالفصاحة ، التي هي مدار الإعجاز ، وإن لم ينكر أن الفكر يتعلق بمعاني الكلم المفردة ، لكنه أنكر أن يكون متعلقا بها ، مجردة من معاني النحو . واعتبر الاستعارة ، وضروب المجاز الأخرى ، داخلة فيما هو معجز ، باعتبارها من مقتضيات النظم ، وليس باعتبارها استعارة ومجازا ، لأن ذلك يترتب عليه نتائج خطيرة ، حيث يؤدي اعتبار الفصاحة راجعة إلى الاستعارات مجردة - إلى قصر الفصاحة على آيات من سور القرآن الكريم دون أخرى ، هذا وقد أثار الإعجاز ، الذي هو أعلى مستويات الفصاحة - قضية مهمة في علم اللغة ؛ هي : مدى العلاقة بين البلاغة ، وطبيعة التركيب النحوي للجملة العربية ، وكذلك مدى الترابط بين البلاغة وعلم اللغة عموما وعلم الدلالة خصوصا .

والنص يكون فصيحا حين تكون فيه استعارات ومجازات ، كما يكون فصيحا بالقدر نفسه دون استعارات ومجازات ، لأن مقتضى الفصاحة هو في النسق المعروف باسم النظم . والقرآن الكريم مثل بيّن على ذلك فهو فصيح كلّه ، معجز كلّه ، تتساوى في ذلك الآيات المحكمات والمتشابهات ، كما تتساوى في ذلك أيضا ، آيات العقيدة ، والدعوة والقصص القرآني ؛ التي تكثر فيها الاستعارات ، والمجازات ، وآيات الأحكام التي تقل فيها مثل تلك الاستعارات ، والمجازات .

إذا كان هذا ما وضعه عبد القاهر الجرجاني في مجال التركيب النحوي للجملة العربية ، فما الذي أضافه الإمام فخر الدين الرازي في هذا المجال ؟

قد تكون المسألة الأساسية التي أضافها الرازي هي ما نسميه اليوم باسم المنهجة ، فلقد حدد مهمته في منهجة كتابي الجرجاني : الدلائل والأسرار ، إذ إن الكتابين يعرضان النظرية ، لكن دون ضوابط ، فجاء الرازي وصاغ الكتابين مضبوطين بضوابط المنهج العقلي المنطقي ؛ وتلك إضافة نوعية ، كان لها أثرها في الذين جاءوا بعد الرازي كالسكاكي (ت ٦٢٦ هـ) والزملكاني (ت ٦٥١ هـ) وابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقزويني (ت ٧٣٩ هـ) ، ويحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ) [١] والسيوطي في كتابه : المزهر في علوم اللغة [٢] .

ولقد ساق الرازي العلل العقلية الدالة على تقسيمه المنهجي للقضايا اللغوية التي أوردها في كتابه : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، وحيث إن هذه المنهجة تقوم على أسس عقلية ، فقد اعتبر العلم بالعلل اللغوية والبلاغية أساس العلوم الدينية ، مشيرا إلى أن قواعد هذا العلم مقررة بالأدلة اليقينية [٣] لأنه من العلوم العقلية ، وليس من العلوم النقلية ذات الطابع الظني ، كالمعاني الوضعية للألفاظ مثلا ، التي قد تأتي من خلال أخبار الآحاد .

ومما ساق الرازي من موضوعات منهجة معللة ، حديثه عن علم البلاغة ؛ فقد تحدث أولا عن المفردات ، وأشار إلى أن الغرض الأصلي من وضع الألفاظ المفردة ، إفادتها لمسمياتها ، ذلك لأن إفادتها موقوفة على العلم بكونها موضوعة لها ... مبينا أن الغرض الأصلي هو أن يضم بعضها إلى بعضها الآخر لتحصل الفوائد المركبة [٤] .

والمقصود من الكلام عند الرازي إفادة المعاني ؛ وهي تكون على وجهين : إفادة وضعية ؛ وإفادة معنوية ؛ والإفادة الوضعية تفيد معناها الموضوعة له ؛ ولذلك لا يستخدم غيرها في العلوم العقلية ، لأنها غير قابلة للزيادة والنقصان " الموقعين في الغلط والشبهة " [٥] . أما الإفادة المعنوية فإنها تعود إلى انتقال الذهن من مفهوم اللفظ إلى ما يلزمه من اللوازم " [٦] .

ثم انتقل إلى النظم والتركيب فقسم التركيب إلى مفيد للمعاني ، وغير مفيد . والتركيب المفيد على مراتب ، أعلاها : ما يمتنع أن يوجد ما هو أنسب منه في إفادة المعنى

---

(١) انظر : ماهر مهدي هلال ـ فخر الدين الرازي بلاغيا ، منشورات وزارة الإعلام ـ الجمهورية العراقية ـ بغداد ص ٢٥٨ .

(٢) انظر : السيوطي ؛ جلال الدين عبد الرحمن ، المزهر في علوم اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم . دار الجليل ـ بيروت ـ دار الفكر ـ بيروت ، ج ١ .

(٣) انظر : الفخر الرازي ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٢٩ .

(٤) الرازي / نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٧١ .

(٥) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(٦) المرجع نفسه ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تتدرج المراتب ، والمرتبة الأعلى هي التي تقتضي الفصاحة في النظم الذي قال عنه الإمام عبد القاهر : " إنه توخي معاني النحو " (١) .

وقد علل الإمام فخر الدين الرازي عدم عودة الفصاحة إلى الدلالات الوضعية للألفاظ ، باستحالة التفاضل في الدلالة الوضعية . وامتناع التفاوت في الدلالة ، يوجب امتناع التفاوت في الفصاحة (٢) .

كما أورد العلل الدالة على بطلان أن تكون الفصاحة صفة للألفاظ مبينا أن ترتيب الكلمات في الكلام المفيد أمر عقلي ، وأن ترتيب الحروف في الكلمة أمر وضعي (٣) .

وعند حديثه عن النظم وضرورته ، رد على حجج المخالفين ، بالإشارة إلى أن الفصاحة الناجمة عن النظم تفيد قوة في البيان (٤) ، ولكنه لم يشترط ـ كما لم يشترط عبد القاهر الجرجاني ـ أن يكون الناظم عالما بمصطلحات النحو بل يكفي أن يكون عالما بالسياق النحوي ومعاني النحو ، مستدلا على ذلك بالبدوي الذي يجيد النظم وهو لا يعرف مصطلحات النحو (٥) .

وفي هذا القول إشارة إلى الفطرة اللغوية ودورها في النظم بعيدا عن تعقيدات المصطلحات واصطناع التركيبات اللغوية .

وقد حدد الرازي النظم الكامل بأنه : اختيار الأليق في كل موضع من ثلاثة أمور هي : دلالة الألفاظ ودلالة حركاتها وسكناتها ، وهي الإعراب وانضمام بعضها إلى بعض . قال : " وكلما كان أجزاء الكلام أقوى ارتباطا وأشد التحاما ، كان أدخل في الفصاحة . وهو مثل قول بشار الذي أشار إليه عبد القاهر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه "

ومن المهم أن الإمام الفخر الرازي لم يجعل لهذا الباب من النظم قانونا يحفظ بل أوضح أنه يأتي على وجوه شتى عدد منها ثلاثة وعشرين وجها من الوجوه المفيدة ؛ المطابقة

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص ٤١ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ٤٥ .

(٣) انظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٤٥ .

(٤) المرجع نفسه ص ٤٨ .

(٥) المرجع نفسه ٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الجمع بين المتضادين) ، والمقابلة (بين شيئين متوافقين وضديهما) ، والمزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء ، والاعتراض ، والالتفات ، والتقديم والتأخير ، والحذف والإضمار ، والفصل والوصل [١] .

ومن العلل العقلية التي أوردها الرازي ، ما ذكره عند حديثه عن التقديم والتأخير ، في سياق رده على من قالوا : الفاعل ذات والفعل صفة ، والذات متقدمة على الصفة في الرتبة ، وكذلك من زعم أن الفاعل جزء من الفعل ؛ والجزء قبل الكل ، وإذا استحق التقديم في المعنى ، وجب أن يستحق التقديم في اللفظ .

وقد كان رأي الفخر الرازي أن الفعل هو : " اللفظ الدال على ثبوت معنى لشيء غير معين في زمان معين " [٢] . والعقل ينتقل إلى ما أسند إليه الفعل وهو الفاعل ؛ فمن ضرورة الإسناد فهم المسند إليه . وإذا وجب هذا الترتيب في الذهن وجب في الألفاظ أيضا ، لأن دلالة الألفاظ على ما ثبت في النفس ، لا على ما في الخارج [٣] . ذلك لأن حصول ماهية الفعل في الذهن يستلزم حصول شيء يسند الذهن ذلك الفعل إليه ؛ والمنقول إليه متأخر في الرتبة عن المنقول عنه . فلما وجب كون الفعل مقدما على الفاعل في الذهن ، وجب تقدمه عليه في الذكر . وبهذا السياق رد على من لم يفرقوا عقلا بين (ضرب زيد) و (زيد ضرب) بأن ذكر زيد لم يلزم أن يحكم الذهن بإسناد معنى آخر إليه ؛ أما قولنا ضرب فيلزم منه أن يحكم الذهن بإسناد هذا المفهوم إلى شيء ما [٤] .

وفي تقديم الفاعل على المفعول أشار إلى أن الفاعل مؤثر والمفعول قابل ، والمؤثر أشرف من القابل ؛ فالفاعل متقدم على المفعول من هذا الوجه [٥] .

أما عن الحركات ، فقد ذكر أن الخليل قال : الأصل في الرفع ، الفاعل ، والبواقي مشبهة به ، وأن سيبويه قال : الأصل هو المبتدأ والبواقي مشبهة به ، وأن الأخفش اعتد كل واحد منهما أصلا بنفسه .

---

(١) انظر : الفخر الرازي / نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ١٤٤ .

(٢) الفخر الرازي / نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ١٦١ .

(٣) انظر : المرجع السابق نفسه .

(٤) الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٦٣ .

(٥) انظر : المرجع السابق نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحجة الخليل أن الرفع للفاعل أولى منه للمبتدأ ، والأولوية تقتضي الأولية ، فإذا قلت : (ضرب زيد بكر) بإسكان المهملتين (الدال والراء) ، لم يعرف الضارب من المضروب ، أما إذا قلت : زيد قائم بإسكانهما عرفت من نفس اللفظتين المبتدأ من الخبر . فثبت أن افتقار الفاعل إلى الإعراب أشد ؛ فوجب أن يكون هو الأصل [١] . والرفع في الفاعل يدل على خصوص ، وفي المبتدأ والخبر لا يدل حيث إنه مشترك . وحجة سيبويه أن الجملة الاسمية مقدمة على الفعلية فإعراب الاسمية يجب أن يكون مقدما على الفعلية .

هاتان هما حجتا الخليل وسيبويه ؛ أما الإمام الفخر الرازي فقد كان يرى أن الفعل أصل في الإسناد إلى الغير فكانت الجملة الفعلية مقدمة ؛ وهو بذلك يؤيد رأي الخليل [٢] .

وفي تعليله لرفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه ، ذكر أن الفاعل واحد والمفعول أشياء كثيرة . ولما كثرت المفاعيل ، اختير لها أخف الحركات . ولما قل الفاعل ، اختير له أثقل الحركات [٣] .

وعن تقديم الفاعل وتأخير المفعول قال : " الفاعل مقدم على المفعول ؛ لأن الفعل لا يستغني عن الفاعل ، وقد يستغني عن المفعول " [٤] .

وقد عرض السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) لرأي الرازي من خلال عرضه رأي الأشاعرة ؛ ففي الفاعل ذكر أن العامل ، إما أن يكون لفظا أو معنى ، واللفظ إما أن يكون اسما أو فعلا أو حرفا ؛ فينحصر العامل في أربعة أنواع ، ثم قال : " ومن حكم كثير من أصحابنا أن الفعل في الألفاظ أصل في العمل دون الاسم أو الحرف ؛ بناء منهم ذلك على أن المؤثر يلزم أن يكون أقوى من المتأثر . والفعل أقوى الأنواع من حيث المناسبة ، لكونه أكثر فائدة ؛ لدلالته على المصدر وعلى الزمان . وعندهم في تقريرهم هذا أن الاسم والحرف لا يعملان إلا بتقويمهما به فيقدمون الفعل في باب العمل " [٥] . وقد خالفهم السكاكي في ذلك . ولو كان قولهم ذلك صحيحا لكان ذلك في كل اللغات وهو ما لا يؤيده الواقع .

---

(١) انظر : المرجع السابق نفسه ص ٦١ .

(٢) انظر : المرجع السابق نفسه .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٥٣ دار إحياء التراث العربي.

(٤) المرجع السابق نفسه ص ٥٤ .

(٥) السكاكي / ابو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي : مفتاح العلوم - طبع مطبعة التقدم العلمية بمصر / القسم ٢ ص ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا وبالإضافة إلى المنهج العقلي المنطقي الذي ضبطت من خلاله المصطلحات والتعريفات والموضوعات اللغوية في كتاب الإمام فخر الدين الرازي " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " وبالإضافة إلى أن الإمام الرازي قد عمق نظرية النظم بطرحه مواضيع في النظم كنت أشرت إليها سابقا ، فإن الفخر الرازي قد وسع دائرة النظم ، من نطاق الجملة إلى الفقرة والفقرات ، وإلى النص ، بل إلى مجموعة من النصوص ذات الطابع التكاملي .

وبهذا يكون الإمام الرازي قد وضع تصوره هذا للغة ، في سياق الترتيب أو النظم ؛ الذي يمسك بأطراف النص ، أو مجموعة النصوص المتكاملة ، مما يقربه من مفاهيم نادى بها بعض المحدثين ، كوحدة النص[1] وما إلى ذلك .

فعند تفسيره لآيات القرآن الكريم ، وسوره ، كان كثيرا ما يربط بين مضمون كل آية ومضمون الآية التي تليها ؛ كما كان يربط بين المواضيع المختلفة في الآيات المختلفة ليجعل منها نصا واحدا ، تتعدد آياته تعدد تنوع ، لا تعدد اختلاف . كما كان يربط بين نهاية كل سورة وبداية السورة التي تليها في نسق يجعل القرآن الكريم كله ، وحدة واحدة يأخذ بعضه برقاب بعض .

ولم تقتصر هذه الإضافة النوعية ، ذات البعد اللغوي المتميز على آيات دون أخرى ؛ أو على سور دون سور ؛ بل شملتها جميعها تقريبا ؛ دون تمييز بين قصيرها وطويلها ، ولا بين محكمها ومتشابهها ولا بين مضامينها الدعوية ، أو مضامينها التشريعية ، أو مضامينها القائمة على العظة والاعتبار بما آلت إليه حال الأولين .

وهناك أمثلة عديدة على هذا التوسيع لدائرة النظم ، منها :

(أ) ذكر مثلا في سياق تفسيره سورة البقرة ، في قوله تعالى : ﴿ **ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾[2] .

ذكر بعض ما أورده الزمخشري ، في الكشاف ، عن تفسيرها حين قال : محل هدى للمتقين الرفع ؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر مع (لا ريب فيه) لذلك الكتاب . أو

---

(١) من الذين نادوا بوحدة النص كولريدج و ت . س . إليوت . انظر : د. محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ص ٩٧ - ١١١ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٩ - بيروت - لبنان .

(٢) البقرة / الآيات ١ - ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مبتدأ ؛ إذا جعل الظرف المتقدم خبرا عنه . ويجوز أن ينصب على الحال . والعامل فيه الإشارة أو الظرف (١) .

ثم علق الفخر الرازي على ذلك ذاهبا إلى ما ذهب إليه الزمخشري من أن كلا منها جملة قائمة بنفسها . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ؛ حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وقال ما قاله الزمخشري : " وذلك لمجيئها متآخية ، آخذا بعضها بعنق بعض والثانية متحدة بالأولى ، وهلم جرا ، إلى الثالثة والرابعة " (٢) .

أما وجه النظم في هذه الآيات فقد استمد من المعنى في (ألم) تنبيه منذ البداية على أنه (أي هذه الحروف) هي الكلام المتحدى به . ثم تلاه بالإشارة إلى أن هذا الكتاب هو المنعوت بغاية الكمال ؛ وهو تأكيد لجهة التحدي وهو القرآن الكريم . ثم نفى عنه كل ريب فكان ذلك شهادة بكماله ، ثم أخبر عنه أنه هدى للمتقين فقرر بذلك أنه يقين لا يحوم الشك حوله أما وجوه النظم فقد تمثلت في الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه في الآية الأولى ، والتعريف وما فيه من الفخامة في الثانية ، وتقديم الريب على الظرف في الثالثة ، والحذف ووضع المصدر في الرابعة (الذي هو هدى) موضع الوصف ، (الذي هو هاد) وإيراده منكّرًا (٣) .

(ب) في تفسيره لسورة الكوثر ذكر أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة (مقابلة المنافقين وصفاتهم) في ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين** ﴾ (٤) وأنها جاءت في سياق النظم مترابطة مع ما قبلها ، وما بعدها فهي كالتتمة لما قبلها من السور وكالأصل لما بعدها (٥) ، ثم ذكر وجه العلاقة والنظم بين السور التي قبلها والسور التي بعدها (٦) .

---

(١) انظر : الزمخشري ؛ ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، رتبه وصححه مصطفى حسين احمد . الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٧٨ م ، دار الريان للتراث - دار الكتاب العربي - بيروت ، ج١ ص ٣٠ - ٣٥ .

وانظر : الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) انظر : الزمخشري / الكشاف ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ .

الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) انظر الزمخشري : الكشاف ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ .

وانظر الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ٢٥ .

(٤) سورة الماعون /الآية ١ .

(٥) انظر : الفخر الرازي - التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ .

(٦) انظر : المرجع نفسه ص ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي بيان أوجه النظم في سورة الكوثر أوضح أن الفعل قد بني على المبتدأ (إنا أعطيناك) فإذا ذكر الخبر قبّله قَبِله قبول العاشق لمعشوقه [١] . ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ عطف الشيء على غيره بالواو ، لا يوجب الترتيب دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ؛ لا لأن الواو توجب الترتيب ؛ بل لقوله (ص): (ابدأوا بما بدأ الله به) [٢] .

قال الفخر الرازي : " كان الأليق في الظاهر أن يقول : إنا أعطيناك الكوثر . فصل لنا وانحر . لكنه ترك ذلك ، إلى قوله : فصل لربك لفوائد : إحداها : أن وروده على طريق الالتفات ، من أمهات أبواب الفصاحة ، وثانيها : أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر ؛ يوجب نوع عظمة ومهابة " وكذلك في سورة الإسراء وسور أخرى كثيرة [٣] ربط فيها الرازي ربطا محكما بين آياتها كما ربط بين السور حتى بات القرآن الكريم عنده وحدة واحدة ، معتمدا أحكام النظم من تقديم وتأخير وابتداء وإخبار وحذف وإضمار .

وبذلك يكون الفخر الرازي قد أضاف إلى علم اللغة أضافة نوعية كما أسلفت ، وقد أثبت بذلك كله إعجاز القرآن الكريم ، وربط بين النحو والبلاغة ، فلم تعد البلاغة عنده في الاستعارات والكنايات وحدها ، بل في مجيء النص على نسق تتلاقى من خلاله البنية المعنوية والبنية اللفظية تعززها الاستعارات والكنايات ، ولكن ليست هي الأصل فيها ، كما لم تعد البلاغة راجعة إلى اللفظ المفرد ، وإنما إلى التركيب والنسق الذي تأتي عليه الألفاظ ، لذلك كله جاءت جهوده الموصولة استمرارا متميزا لجهود عبد القاهر الجرجاني من ناحية والزمخشري والغزالي من ناحية ثانية . كما أن جهوده قد أرست أساسا مناسبا لما توصل إليه علم اللغة الحديث في هذا المجال . كما سنرى عند فيرث وتشومسكي وعند عالمي النفس أوجدن وريتشاردز في الصفحات التالية .

وعلى الرغم من تأثير الفخر الرازي في غير واحد ممن جاءوا بعده من علماء اللغة والمفسرين إلا أن ثمة من أبدى عليه بعض الملحوظات ، ومن بينها مثلا ما قاله ابن حيان الأندلسي في تفسير قوله تعالى ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ [٤] حين بين الرازي فساد ما ذهب إليه سيبويه من أن كلمة " السارق " تؤول في هذا التركيب على أنها مبتدأ وخبرها محذوف حتى لا تدخل الفاء على الخبر لأن ذلك ممتنع عند سيبويه وأنه قد قال

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص ١٢١ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٣٢ .

(٣) الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٣١ .

(٤) المائدة / الآية ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصل هذه الجمل بعضها مع بعضها الآخر ، أو فصلها . وكذلك المعنى الذي يوحي بمعنى آخر أعمق وأبعد سمّاه عبد القاهر الجرجاني : معنى المعنى [١] وهو الذي كتب فيه أوجدن وريتشاردز Oudjdin and Richards كتابا بعنوان : معنى المعنى (The meaning of meaning) حيث فسرا المعنى تفسيرا رياضيا ، يرتد إلى أربعة عناصر ، هي : القصد ، والقيمة ، والمدلول عليه ، والانفعال العاطفي [٢] .

لقد تحدث العرب عن السياق ، أو سياق الحال في أثناء حديثهم عن التراكيب اللغوية ، ودلالتها [٣] . كما قالوا قولتهم المشهورة " لكل مقام مقال " . والأول يشعر إلى ما يفهم من السياق اللفظي والمعنوي ، والثاني يشير إلى جملة الظروف التي تحيط بالمتكلم ، والمتلقي ، والنص نفسه ، وأثر ذلك في بنية النص ، وفي دلالته أيضا .

ولقد كان عبد القاهر الجرجاني تحدث عن القرائن اللفظية والمعنوية الدالة على المعنى حين تحدث عن التعليق ؛ أي عن تعلق الكلم ، بعضه ببعضه الآخر [٤] . كما اهتمت مدرسة لندن اللغوية بنظرية سياق الحال (context of situation) وخصوصا فيرث (Ferth) (ت١٩٦٠) . وقد جاء ذلك في سياق نظرية المعنى عنده ، ثم حدث شيء من التراجع عن الاهتمام بالمعنى من خلال التركيز على التحليل الفونولوجي والنحوي الذي يركز على الجوانب الشكلية في اللغة . ولكن سرعان ما عادت دراسة المعنى إلى صلب البحث اللغوي ؛ عند تشومسكي وأصحابه [٥] .

وعليه ؛ يمكن تقسيم الدلالة عموما إلى دلالة مقالية ، وأخرى مقامية ، فالكلام ؛ انجاز متولد متغير ، على الدوام ، وهو يوازي العقل ، على اتساعه ، وتعدده ، واتساع الأحوال وتعددها ، والمواقف التي تحيط به وتنوعها ، والتي تؤدي به إلى إنتاج اللغة ، على النحو الذي تكون عليه [٦] .

ويتجلى ذلك من خلال الوظيفة التعبيرية للغة ، التي تهتم بالمتكلم والوظيفة التوصيلية ، التي يكون المتلقي محورها . وهذا الذي يجعل القيمة الوظيفية ، قيمة نسبية تتعلق بمدى ما يضيف المتكلم للسامع من معلومات لم يكن على علم بها من قبل ، والاتساع

---

(١) انظر : عبد القاهر الجرجاني / دلائل لإعجاز ص ١٧٣ .

(٢) انظر : أولمان / دور الكلمة في اللغة ص ٥٧ وما بعدها .

(٣) انظر : عبد القاهر الجرجاني / دلائل الإعجاز ص ٦٠ وما بعدها .

(٤) انظر : عبد القاهر الجرجاني / دلائل الإعجاز / ص ٢٦٢ .

(٥) انظر د . عبده الراجحي / علم اللغة الاجتماعي ص ٢٢ - ٣٤ .

(٦) انظر : عبد القادر المهيري / النظرية اللسانية والشعرية في التراث ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستيعاب الدلالات وجلاء المعاني يقتضي عملا جماعيا ، يحدد المفاهيم ، ويبين وجه القصد من الكلام . ولذلك فالعلاقة بين الوظيفة التعبيرية والتوصيلية للغة وبين بنية المجتمع البشري علاقة تناسب طردي ، فكلما كانت الأمة أكثر تحضرا ، كانت لغتها ، أكثر تمكنا كما لاحظ عدد من أعلام الحضارة الإسلامية كابن حزم ، وابن خلدون . فابن خلدون مثلا شدد على عامل تكرار الفعل اللغوي عن طريق المعاودة والارتياض . وبذلك جنب فكرة (الملكة اللغوية) ضبابية (سليقة الطبع) (١) .

ولقد كان الإمام فخر الدين الرازي من الذين تصوروا اللغة من خلال السياق اللفظي والمعنوي ، ومن خلال المقام الذي تحدث فيه العملية اللغوية بكافة مستوياتها النفسية والاجتماعية والاقتصادية ، وما إلى ذلك . وكذلك المتكلم والسامع وما يحيط بالعملية اللغوية برمتها . كما أظهر البعد الاجتماعي للغة ، وأثر ذلك في الدلالة ، وعرج على البعد الحضاري للغة ، وتلازم اللغة والمستوى الحضاري للأمة . كما تحدث عن نسبية البنية اللغوية من خلال اقترانها بالزمن (٢) ، ويمكننا أن نتبين بعض هذه الأبعاد السياقية والمقامية من خلال تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم :

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السماوات ، ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين** ﴾ (٣) قال أبو عبيدة والفراء والزجاج : (أثارة من علم) أي بقية .

وقال المبرد " أثارة " ما يؤثر من علم ، أي بقية . قال صاحب الكشاف : وقرئ (أثرة) أي : من شيء أو أوثرتم به .

وبعد أن أورد الآراء السابقة ذكر رأيا لابن عباس أن الأثارة هي علم الخط الذي يخط به في الرمل وأنه من العلوم المشهورة حيث كان العرب يخطون في الرمل . وقد أورد قولا للنبي (ص) عن علم الخط ذكر فيه أن نبيا من الأنبياء كان يخط ، فمن وافق خطه خطه ، علم علمه . وفي النهاية أيد الرازي رأي ابن عباس (٤) .

ومعنى هذا أن الرازي يميل إلى المعنى الذي اقتضاه المضمون الاجتماعي لفكرة الأثارة أو الخط ؛ أي أنه يحمله على مقامه الاجتماعي ، وبعده الثقافي ، فيما تعارف الناس عليه من معنى الخطية . وما جرت به العادة والعرف الاجتماعيان .

---

(١) انظر : عبد القادر المهيري / النظرية اللسانية والشعرية في التراث ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢٨ ص ٤ ، ٥ .

(٣) الأحقاف / الآية ٤ .

(٤) الرازي / التفسير الكبير ج ٢٨ ص ٤، ٥ ، دار الفكر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي تفسير الرازي لقوله تعالى : ﴿ **عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون** ﴾ (١) ربط بين الشيء العظيم الذي لا يحيط الناس به ، ويظل مجهولا ، وبين " ما " التي يطلب بها معرفة الحقائق التي تكون مجهولة . وبذلك حصل بين ما هو مطلوب بلفظ " ما " وبين الشيء العظيم مشابهة . والمشابهة إحدى أسباب المجاز . فلفظ (ما) دليل على عظمة الشيء الذي يتساءلون عنه (٢) .

وبهذا استدل الرازي على تفسير الآية مما يوفره السياق المعنوي من دلالات . وإن كنت ، لا أرى أن لما طرح من دلالات " ما " ، وجها من كون الجهل بالشيء سمة مشتركة بين " ما " والشخص العظيم . فليس شرطا أن يكون العظيم مجهولا كما أنه ليس من شروط " ما " الاستفهامية أن تدل على الجهل المرتبط بالعظمة ، فعندما أقول لشخص : ما الذي تسألني عنه ؟ فليس في هذا القول ما يتصل بالعظمة من أي وجه . لكن المهم هنا أن الرازي قد حرّك كلمة " ما " في مجالها الحيوي الذي تدور فيه من خلال ارتباطها بسياقها اللفظي للخروج بالنتائج التي خرج بها .

كما استدل الرازي على مفهومه للذين كانوا " يتساءلون " مستنتجا أنهم الكفار ، وذلك من خلال السياق اللفظي والمعنوي ، حيث بيّن أن الضمير في (يتساءلون) و (هم فيه مختلفون) و (كلا سيعلمون) يعود إلى الكفار ؛ لأن قوله : (كلا سيعلمون) تهديد ، والتهديد لا يليق إلا بالكفار (٣) .

وفي سورة النبأ نفسها ؛ وفي كيفية اتصال قوله تعالى : " عن النبأ العظيم " بما قبلها (عم يتساءلون) ذكر آراء طرحتها مدارس لغوية متعددة ، وعلماء مختلفون . ولكن الوجوه كلها تقوم على استنتاج المعنى من خلال السياق ؛ فمثلا أورد قول البصريين : " عم يتساءلون " : كلام تام . ثم قال : " عن النبأ العظيم " إلا أنه حذف " يتساءلون " في الآية الثانية ؛ لأن حصوله في الآية الأولى ، يدل عليه . أي أن السياق اللفظي قد حال دون تكرار لفظ يتساءلون مرة ثانية (٤) .

كما أورد قولا آخر للبصريين أيضا ؛ وهو تقديره بالاستفهام . " أعن النبأ العظيم ؟ " ، وأنه اقتصر على الاستفهام الوارد في الآية الأولى " عم " ، فما دام مذكورا

---

(١) النبأ / الآيات ١، ٢، ٣ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٣ ، دار الفكر .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٤ ، دار الفكر .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في السياق اللفظي فلا حاجة إلى تكراره [١] . ولم ينكر الرازي هذا الرأي ، وذكر قولا آخر اختاره الكوفيون ؛ وهو أن الآية الثانية متصلة بالأولى ؛ على تقدير : لأي شيء يتساءلون عن النبأ العظيم ، و " عم " كأنها في المعنى لأي شيء . وهذا القول للفراء [٢] . ولم ينكر الرازي هذا الرأي أيضا ، والذي يبدو لي ، أن هذا الوجه ، لا وجه له ؛ إذ إن تقدير (عم) معنى لأي شيء هو خروج بالمعنى عن وجهه ، ب (عمّ) مكونة من (عن) و (ما) ولأي شيء يقابلها : لِمَ ، ولكن تقدير الكوفيين للاتصال هو الذي جعلهم يُؤَوِّلون (عم) بمعنى (لم) ؛ أي أن السياق اللفظي للتواصل هو الذي جعلهم يلجأون إلى هذا التحوير .

ومن الأمور التي يتضح فيها أثر المقام والسياق في المعنى ؛ ما اختاره الفخر الرازي في أثناء تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ [٣] حين ذكر قول بعض الملاحدة : إن السبات هو النوم وإن الآية تصبح : وجعلنا نومكم نوما . وحين ذكر آراء بعض العلماء في التأويل الذي رأوه للسبات ، ومنه أنه الموت (من السبت / القطع) مستدلين بقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل** ﴾ إلى قوله ﴿ **ثم يبعثكم** ﴾ [٤] . فالنوم موت واليقظة معاش أي حياة من قوله تعالى ﴿ **وجعلنا النهار معاشا** ﴾ [٥] وقد استدل الإمام الفخر الرازي من السياق اللفظي على ضعف الوجوه السالفة ؛ ذلك أن الأشياء المذكورة في الآية هي جلائل النعم ، والموت لا يناسب جلائل النعم المذكورة في الآية [٦] .

فالسياق اللفظي والمعنوي بذكر جلائل النعم اقتضى ألا يكون معنى السبات الموت ؛ وإن كان ذلك جائزا لغة ؛ كدلالة أصلية للفظ المفرد .

وفي تفسيره قوله تعالى: ﴿ **إن للمتقين مفازًا ، حدائق وأعنابًا** ﴾ [٧] اعتبر (مفازًا) يحتمل أن تكون مصدرًا ؛ بمعنى فوزًا وظفرًا ، كما يحتمل أن تكون اسم مكان ، والفوز : إما أن يكون فوزًا بالمطلوب ، أو أن يكون فوزًا بالنجاة من العذاب ، أو أن يكون مجموع الأمرين . وقد رجح أن يكون الفوز بالمطلوب ، وكان سبب هذا الترجيح أنه تعالى فسر المفاز بما بعده وهو قوله : (حدائق وأعنابا) ، فوجب أن يكون معنى المفاز هو هذا

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ، ص ٥ .

(٢) انظر : المرجع نفسه .

(٣) النبأ / الآية ٩ .

(٤) الأنعام / الآية ٦٠ .

(٥) النبأ / الآية ١٠ .

(٦) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٧ دار الفكر .

(٧) النبأ / الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أن الفخر الرازي قد استدل بالمقام على معنى (فلا تنسى) من قوله تعالى : ﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ (١) ، حيث عرض أن بعضهم قال : إن معناها النهي ، والألف مزيدة للفاصلة . ثم قال : " والقول المشهور أن هذا خبر ، والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان " (٢) . وقد كان مردّ ترجيح الرازي هذا المعنى ؛ أن المقام هو مقام البشارة والتعظيم .

وكذلك حين فسر قوله تعالى : ﴿ **يقول يا ليتني قدمت لحياتي** ﴾ (٣) ذكر أن الله قال (لحياتي) ولم يقل : (لهذه الحياة) على معنى أن الحياة ليست سوى الحياة في الدار الآخرة (٤) مستدلا على ذلك بقوله تعالى ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾ (٥) أي : لهي الحياة . فالسياق العام لمعنى الحياة الوارد في آيات القرآن الكريم الأخرى هو الذي جعل الفخر الرازي يرجح أن معنى (حياتي) ؛ الحياة الآخرة .

وفي نطاق آخر ، استدل الفخر الرازي بالمقام على تفسير قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق** ﴾ (٦) فالمقام هنا هو مقام إرساله (ص) رسولا إلى المشركين وليس إلى المؤمنين . فلو قال له : اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له ، لأبوا أن يقبلوا منه ذلك ، لكنه تعالى قدم لذلك بمقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به (٧) فذكر الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . وهو ما يتناسب والمقام الذي هم عليه مقيمون .

---

(١) الأعلى / الآية ٦ .

(٢) الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٤٢ .

(٣) الفجر / الآية ٢٤ .

(٤) انظر الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٧٦ .

(٥) العنكبوت / الآية ٦٤ .

(٦) العلق / الآيتان ١ ، ٢ .

(٧) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

أثر تصور الرّازيّ للغة في مفاهيمه الكلاميّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

أثر تصور الرّازيّ للغة في مفاهيمه الكلاميّة

كنت قد تحدثت في الفصل الأول عن المنطلق النظري الذي انطلق منه الفخر الرازي في تصوره للغة وقد كنت بيّنت أن الفخر الرازي ينطلق من نظرية تقترب من النظرية اللغوية التي ترى أن العلاقة بين اللغة والفكر علاقة تلازمية . كما كنت تحدثت في الفصل الثاني عن المعالم النظرية لتصور الفخر الرازي للغة . وبالتالي يبرز أمامنا موضوع يتعلق بمدى تأثير هذه المعالم النظرية في المفاهيم التي طرحها وخصوصا المفاهيم الكلامية . ولكي يأخذ هذا الموضوع منحى تطبيقيا سأقوم ـ إن شاء الله ـ بإبرازه من خلال تفسير الفخر الرازي لآيات القرآن الكريم .

ولكي يأخذ هذا الموضوع وضعه الطبيعي ويفهم في سياقه المناسب ، أجد من الضروري أن أنظر في دور اللغة في صياغة مفاهيم الفرق الإسلامية على وجه العموم ثم في فكرة التأويل عند الإمام فخر الدين الرازي باعتبارها الأساس الذي استند إليه الفخر الرازي في تفسيره للآيات التي تحتمل ذلك التأويل عنده ، وبالتالي أدت به إلى أن يتبنّى المفاهيم التي تبنّاها .

وبما أن هذا الموضوع يتعلق بعالم من علماء الكلام وهو الفخر الرازي ، فسوف أركز هنا على علماء الكلام ودور اللغة في صياغة ما صاغوا ، دون التركيز على غير المتكلمين ، ولكن مع الاهتمام ببعض علماء أصول الفقه والفقهاء وببعض الاتجاهات التي كان لها علاقة باللغة وبالفكر الإسلامي عموما وبالمتكلمين خصوصا من وجه من الوجوه ، كالإمام أحمد والإمام ابن تيمية من جهة ، والمتصوفة من جهة أخرى . ولأن هذا الموضوع يتعلق بمتكلم أشعري فمن الطبيعي أن يكون التركيز على الأشاعرة ولكن مع وضعهم في سياق الفرق الأخرى التي كان موقف الأشاعرة عموما والفخر الرازي خصوصا ردا على موقفهم كالمعتزلة من جهة والمشبهة والمجسمة وخصوصا الكرّامية من جهة أخرى .

(أ) اللغة ومفاهيم الفرق الإسلامية

تعتبر اللغة أهم وسائل التواصل الاجتماعي بين الناس ، كما تعتبر أهم مقومات الشخصية الإنسانية ، ولذلك حفل الأقدمون والمحدثون باللغة ؛ ولم يقتصر ذلك على زمان دون زمان ولا على لغة دون أخرى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر احتفاء العرب بفصاحة اللغة ، أن جعلوها شرطا من شروط السيادة ؛ حين اشترطوا في السادة والقادة أن يكونوا بلغاء فصحاء قادرين على التعبير والتوصيل والتأثير (١) . ومما زاد في أهمية اللغة عند العرب ؛ أن أنزل الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم بلغة العرب ؛ فأضفى ذلك على اللغة العربية من المهابة والقداسة ما أضفى .

وكان من مظاهر احتفاء العرب باللغة ، أن ذهبوا يجمعونها من أفواه العرب ضمن ظروف وشروط وضعوها ، ثم طفقوا يستنبطون القواعد من خلال ما توفر لديهم من مادة لغوية ؛ وذلك كله حفاظا على اللغة ، مادة النص الشرعي ، قرآنا وحديثا .

وقد اهتم علماء اللغة بالعلاقة بين العلم بلغة العرب وفهم النص الشرعي ، فهذا أبو الحسين احمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) يجعل العلم بلغة العرب واجبا على كل من له علاقة بعلوم القرآن والسنة . كما يحدد أن الواجب هو معرفة أصول اللغة والسنن التي بأكثرها نزل القرآن الكريم وجاءت السنة النبوية (٢) .

وهذا أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) يدعو إلى حب العرب والعربية ويعتبر ذلك امتدادا لحب الله ورسوله بل ويعتبر الإقبال على تفهم العربية من الديانة " إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد " (٣) .

وكذلك كان لعلماء أصول الفقه والفقهاء اهتمامهم باللغة ، فهذا الإمام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) يرى أن على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ويؤكد أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب دون غيره ، وأنه " لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب أحد جَهِل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها ، ومَن عَلِمَه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جَهِل لسانها " (٤) . كما أكد أن الله خاطب بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وأن مما تعرف من معانيها اتساع لسانها (٥) .

---

(١) لمزيد من التوسع في أثر اللسان والعلاقة بين الفصاحة والسيادة انظر : د . عبد الرحمن ياغي - رأي في المقامات دار الفكر للنشر والتوزيع ١٩٨٥ م ، ص ٢١، ٢٣، ٢٤، ٣٥، ٣٦ .

(٢) انظر : ابن فارس / الصاحبي ص ٦٤ .

(٣) الثعالبي ؛ أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري : فقه اللغة وسر العربية - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ص ٢ .

(٤) الإمام الشافعي ؛ محمد بن إدريس . الرسالة - تحقيق محمد سيد كيلاني - الطبعة الأولى مطبعة البابي الحلبي - مصر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م ، ص ٣١ .

(٥) انظر : الشافعي - الرسالة ، ص ٣٢ ، وانظر كذلك : ص ٢٨، ٢٩، ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان للمتكلمين اهتمامهم باللغة ؛ فالمعتزلة مثلا أسسوا مذهبهم على قاعدة التأويل المرتكز على المجاز في اللغة (١) .

والشيعة كذلك كان لهم اهتمامهم باللغة ؛ وكذلك الإباضية كان لهم احتفاؤهم باللغة مادة النص الشرعي فهذا الشيخ هود بن محكّم الهواري في تفسيره للقرآن الكريم يروي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن القرآن نزل على أوجه ذكر منها " وعربية تعرفها العرب " (٢) .

ويقرر الشيخ هود أنه لا يعرف تفسير القرآن إلا من عرف اثنتي عشرة خصلة من بينها التقديم والتأخير ، والمقطوع والموصول ، والخاص والعام ، والإضمار ، والعربية(٣) .

لكن - وعلى الرغم من احتفاء الفرق الإسلامية جميعها باللغة — إلا أن متكلمي أهل السنة والجماعة المعروفين باسم الأشاعرة ، كان لهم احتفاءٌ خاص باللغة ، تجاوز حدود ما ذهبت إليه الفرق الأخرى بمن فيهم المعتزلة - وإن كانوا أقل توسعا في اللغة من المعتزلة - حيث ذهبوا إلى أنها كسنن الرسول (ص) (٤) .

ومن المعروف أن الأشاعرة كانوا يجمعون بين العقل والنقل . وكان النقل الذي هو النص ، مقدما عندهم على وجه العموم (٥) .

والنقل نفسه فيه جانب شرعي ، وجانب لساني ؛ ولذلك فإن المعيار في معرفة ما يتضمنه النص الشرعي ، هو ما يتماشى وقواعد اللغة وقوانينها (٦) .

ولقد كانت اللغة مدار الإعجاز القرآني (٧) ؛ عند الأشاعرة عموما ، وربما يكون أهم ما يتميز به الأشاعرة عن غيرهم من الفرق الإسلامية الدور الذي جعلوه للغة في الوصول إلى ما توصلوا إليه من مفاهيم ، وكذلك الدور الذي نهضت به اللغة في إعادة الاعتبار إلى سلطة

---

(١) انظر : القاضي عبد الجبار بن احمد الهمذاني : متشابه القرآن - تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور - دار التراث ، القسم الأول والقسم الثاني .

وانظر : الإمام الزمخشري / الكشاف ، الجزء الأول ، مقدمته للتفسير ، الصفحات (م، ن ، س ، غ) .

(٢) الشيخ هود بن محكم الهواري : تفسير كتاب الله العزيز ، حققه وعلق عليه بالحاج سعيد شريفي - الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان ١٩٩٠ م - الجزء الأول ص ٦٩ .

(٣) انظر : الشيخ هود / التفسير ص ٧١ .

(٤) انظر : الإمام الغزالي / المستصفى ، تحقيق محمد مصطفى ابو العلا ، مكتبة الجندي - القاهرة ١٩٧١ م ، ص ٣٢٣ .

(٥) انظر : المرجع نفسه .

(٦) انظر : محمد عابد الجابري - بنية العقل العربي ، الطبعة الثالثة ، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ، ص ٤١ .

وانظر : سعيد بن سعيد العلوي / الخطاب الأشعري ، الطبعة الولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م - دار المنتخب العربي بيروت - لبنان ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٧) انظر : عبد القاهر الجرجاني / دلائل الإعجاز ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النقل ، التي جعلوها مترافقة وسلطة العقل ؛ في حين كادت سلطة النقل تتلاشى مع إيغال المعتزلة في تعزيز سلطة العقل .

ولقد كان موقف الأشاعرة من اللغة ، موقفا وسطا بين اتجاهات متباينة ؛ بعضها يرى التوسع في اللغة ؛ كما كان المعتزلة يفعلون . وبعضها الآخر ، كان يقتصر في اللغة على ما في ظاهر اللفظ ؛ كما كان اتجاه الحنابلة ومنهم ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية .

وكان من أثر اعتماد اللغة أن خلق ذلك مشكلة منهجية تتلخص في مدى جواز الاعتماد على ما هو ظني في تقرير ما هو قطعي ، فدلالات اللغة في جملتها دلالات ظنية في حين أن دلالات الشرع قطعية في العقيدة ظنية في غيرها .

وقد ناقش الإمام فخر الدين الرازي هذا الإمر ، وكان الإمام الرازي متمسكا باللغة ، بل ومعتبرا العلم بالشرع الإسلامي موقوفا على العلم باللغة . وقد بين أن الطريق إلى معرفة لغة العرب ؛ هو النقل ، لأن أمور اللغة أمور وضعية والنقل إما أن يكون متواترا فيفيد العلم والقطع ، وإما أن يكون خبر آحاد فيفيد الظن عند الرازي . والعلم بالشرع عند الفخر الرازي متوقف على العلم باللغة ، قال : " لما كان المرجع في معرفة شرعنا إلى القرآن والأخبار ، وهما واردان بلغة العرب ، ونحوهم ، وتصريفهم ؛ كان العلم بشرعنا موقوفا على العلم بهذه الأمور ؛ وما لا يتم الواجب المطلق إلا به - وكان مقدورًا للمكلف - فهو واجب " (١) .

وقد ناقش أوجه رواية اللغة عند العرب مبينا أنها ظنية ، كما ناقش كيفية تحكيم ما هو ظني في النص الشرعي قرآنا وحديثا مستندا إلى أن علماء الأصول قبلوا بما هو ظني وحكّموا خبر الآحاد في العقائد ولذلك فقبول ما هو ظني في اللغة وتحكيم خبر الآحاد فيها أولى .

والذي أظنه أن خبر الآحاد لا يجوز تحكيمه في العقائد كما أنه ليس كل اللغة خبر آحاد (٢) .

والرازي يذهب إلى أن الله - سبحانه وتعالى - أنزل القرآن الكريم بحسب عرف أهل اللغة وعاداتهم ، بل إنه كان يصف ما يراه صحيحا بأنه " يستقيم على قانون اللغة "(٣) .

وذهب أبعد من ذلك حين اعتبر أن الله تعالى لا يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة ، لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، وقد علل ذلك بقوله : لأنا ، إن جوّزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطنا " (٤) . ففي تفسيره سورة مريم ، وفي تفسيره قوله تعالى (كهيعص)

---

(١) الرازي / المحصول في علم أصول الفقه ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) انظر / المحصول في علم أصول الفقه ج ١ ص ٣٩٠ - ٤٠٧ .

(٣) فخر الدين الرازي : أساس التقديس ص ٢٠٢ .

(٤) الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ١٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوضح أن الكاف هنا لا تعدو كونها حرفا ودلالتها لا تكون إلا ما تقتضيه اللغة ؛ لأن حمل دلالة الكاف على بعض المعاني دون بعضها الآخر ؛ يكون تحكما لا تدل عليه اللغة أصلا (١) .

فالرازي هنا يرفض إضفاء معان باطنية على حروف واضحة الدلالة في العربية ، والأصل عنده اتباع ما تدل عليه اللغة . والرازي باستناده إلى اللغة يلتقي وابن جني الذي كان يرى أن الله سبحانه وتعالى أجرى خطابه مجرى ما يألفه أهل اللغة وما يعتادونه منها ، وهم أيضا فهموا أغراض المخاطب لهم بها " على حسب عرفهم وعادتهم في استعمالها " (٢) .

لكن الرازي لا يذهب في التوسع في اللغة مذهب ابن جني ، كما لا يذهب مذهب القاضي عبد الجبار والزمخشري وغيرهما من المعتزلة ، بل إن الرازي لا يذهب في أحكام اللغة إلى القطع المانع من الاحتمالات البعيدة ؛ وهو ما يتناسب ونظرته إلى اللغة ، وما يتناسب ومفاهيمه ؛ وهو أساس من الأسس النظرية ، والمنطلقات التي انطلق منها الرازي في تصوره للغة ، وفي مفاهيمه ، حيث ينظر إلى الأمور نظرة تتلاقى وطبيعة الأشياء ، ولا تفرض عليها إسقاطات ليست من طبيعتها .

لقد كانت اللغة مرتكز كثير من علماء الأصول والمتكلمين في صياغة ما صاغوا من مفاهيم فكرية . ولذلك تعددت مفاهيم علماء الأصول والمتكلمين تعدد تصورهم للغة .

ولقد جاءت كتب علماء الأصول والمتلكمين عامرة بالمقدمات اللغوية كما فعل الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) في كتابه الرسالة ، وكما فعل ابن جريرالطبري (ت ٣١٠ هـ) (٣) في كتابه جامع البيان ، وكما فعل الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) فيما بعد في كتابه المستصفى (٤) والإمام فخر الدين الرازي ، وكما هو حال ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، على اختلاف في النظرة إلى اللغة .

هذا عند أهل السنة والجماعة الذين اختلفت آراؤهم باختلاف تصوراتهم للغة ، فالإمام الشافعي كان يرى اللغة على التوسع (٥) ، والإمام الغزالي والإمام فخر الدين الرازي - على

---

(١) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ١٨٠ .

(٢) ابن جني : الخصائص ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٣) انظر :الطبري أبو جعفر محمد بن جرير ؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ، الجزء الأول - المقدمة ، ص ٣ - ١١ .

(٤) لمزيد من التوسع ، انظر : د . محمد رياض العشيري - التصور اللغوي عند الإسماعيلية - دراسة في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٥م ، ص ١٢٧ - ١٤٦ .

(٥) انظر : الإمام الشافعي / الرسالة ص ٣١ ، ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجه العموم - رأيا اللغة في حالة حركة ، وأن دلالتها تأتي على التوسع وأنها تحتمل المجاز ؛ وبالتالي تحتمل التأويل ؛ ولذلك أوّلا الآيات المتشابهات الموهمة بالتشبيه والتجسيم من الصفات الخبرية والفعلية للذات الإلهية ؛ لكن الإمام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية - ونتيجة تصورهما للغة بأنها ثابتة ، ولا تحتمل المجاز ، وبالتالي لا تحتمل التأويل - لم يُؤَوِّلا الآيات المتشابهات الموهمة بالتشبيه والتجسيم من الصفات الخبرية والفعلية ، بل فسراها على ظاهرها . أما المعتزلة فإنهم توسعوا في اللغة وخصوصا في المجاز ؛ وبالتالي توسعوا في التأويل ؛ كما فعل القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) حين رد على المشبهة في الآيات المتشابهات ؛ كلفظ الاستواء في آيات القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء** ﴾ (١) ، فقد اعتبر المشبهة أن الاستواء لا يصح إلا على الجسم ؛ لكن القاضي عبد الجبار اعتبر الاستواء يختلف في اللغة بحسب ما يتصل به من القول ؛ فقد يراد به الاستيلاء والاقتدار ؛ وذلك بالاستناد إلى قول الشاعر الأخطل : قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

ففي تفسيره سورة الرعد وفي قوله تعالى : ﴿ **الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر** ﴾ (٢) قال :" بينا من قبل أن الاستواء ، المراد به الاستيلاء والاقتدار " (٣) ، وقد استند إلى الرفع بغير عمد لإثبات عدم الجسمية وانتهى إلى أن الغرض من الآية " ذكر اقتداره على الوجه الذي يختص به " (٤) . وقد تابع الإمام الغزالي الأمر وأول الاستواء بالاستيلاء والقدرة ، وكذلك فعل الإمام فخر الدين الرازي (٥) .

أما الإمام ابن تيمية ، فقد رأى الاستواء بمعناه الذي يدل عليه ظاهر لفظه (٦) ، وهكذا اختلفت المفاهيم باختلاف الفرق في تصوراتها للغة .

---

(١) البقرة / الآية ٢٩ .

(٢) الرعد / الآية ٢ . وانظر : آيات الاستواء البقرة /٢٩ ، الأعراف /٥٤ ، يونس /٣ ، طه ، الفرقان /٥٩ ، القصص /٤ السجدة /٤ ، فصلت /١١ ، الفتح /٢٩ ، النجم /٦ ، الحديد / ٤ .

(٣) القاضي عبد الجبار / متشابه القرآن ، القسم الثاني ص ٤٠٣ .

(٤) انظر : المرجع نفسه ص ٤٠٤ .

(٥) انظر : الفخر الرازي / أساس التقديس ص ٢٠٢ .

(٦) انظر : ابن تيمية : الرسائل الكبرى - دار الفكر - الجزء الأول

و : مقدمة في أصول التفسير ،

و : مجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية - صححه وعلق عليه مع مقدمة بالانجليزية عبد الصمد شرف الدين ، ط ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م - نشرة مصححة بالدار القيمة ببلدة بهيمري (تهانة بمباي) - مطبعة (ق) بمباي الهند .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كانت قضية التوسع في اللغة وعدمه ؛ وخصوصا في النظر إلى النص الشرعي قضية حساسة ؛ إذ لها علاقة بقضية قدم كلام الله (القرآن الكريم) وخلقه التي أثارت جدلاً وأسعًا بين الحنابلة والمعتزلة (١) .

والذي يهمني في هذا المقام ؛ أن الاتجاهات جميعها ـ سواء تلك التي توسعت في اللغة أم تلك التي لم تتوسع فيها ـ انطلقت من تصوراتها للغة أي أن اللغة هي مستندها ؛ وبالتالي فإن ما جاءت به من مفاهيم يمكن ردّه إلى اختلاف في الاجتهاد للاختلاف في تصور اللغة . فالمعتزلة الذين توسعوا في اللغة توسعوا فيها لأنهم يرونها اصطلاحية ؛ أي أنها ظاهرة اجتماعية ، في حين كانت اللغة عند الحنابلة إلهاما إلهيا ؛ وبذلك لم يتوسعوا فيها .

أما الأشاعرة فقد تكافأت عندهم الأدلة ؛ فهي ليست اصطلاحًا محضًا ولا إلهامًا خالصًا ولذلك كان التوسع فيها عندهم بقدر .

لكن ثمة اتجاهات لم تر اللغة في حدودها التي تواضع عليها الناس ، بل رأوها رموزا ظاهرية لمعان باطنية ؛ فالنص عند هؤلاء الذين سمّوا " الباطنية " له معنى ظاهر وآخر باطن . ومن الاتجاهات الباطنية من نظر إلى المعنى الباطني على أنه يقتضي المجاهدة والمرور بمختلف مقامات الوجدان كما فعلت الصوفية .

فقد أورد الإمام ابن عربي في مقدمة تفسيره القرآن الكريم خلاصة موقفه من التأويل الباطني القائم على المقامات والمجاهدة . مستندا إلى قول منسوب إلى الرسول (ص) فيه أنه ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن وأنه لكل حرف حد ، ولكل حد مطّلع . وأن الظهر هو التفسير والبطن هو التأويل (٢) .

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدًا وادخلوا الباب سجدًا وقولوا : حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين** ﴾ (٣) القرية : أي

---

(١) انظر : أبو الحسن عبد العزيز بن يحيى الكناني : الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن ، ط ١٤١٢ هـ حققه وعلق عليه د . علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) انظر : ابن عربي ؛ محي الدين : تفسير القرآن الكريم ـ الطبعة الأولى ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م ، ج١ ص ٧ .

(٣) البقرة / الآية ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روضة الروح المقدسة التي هي مقام المشاهدة ، وادخلوا الباب الذي هو الرضا . كما ورد في الحديث (الرضا بالقضاء باب الله الأعظم)... وسنزيد المحسنين : أي المشاهدين لقوله عليه الصلاة والسلام : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) (١) . وهناك تأويلات كثيرة لأبي طالب المكي الصوفي تقوم على المعنى الباطن (٢) .

ومن الاتجاهات الباطنية من نظر إلى المعنى الباطني على أنه لا يمكن أن يعلم إلا من خلال (تعليم) الناس إياه ؛ فنظرة الإمام عندهم هي الفيصل في الحكم على الدلالات الباطنية ؛ كما فعلت " التعليمية " عموما ؛ التي ترى وجود إمام أو معلّم ، عنده مفاتيح أسرار المعاني الباطنية . ومن بين هؤلاء الإسماعيلية .

والإسماعيلية ربطت المعاني الباطنية بحركة الأفلاك وبالطبيعة عموما ، وبالنسق الرياضي . فإخوان الصفا إذا اعتبرناهم يمثلون وجهة نظر الإسماعيلية ربطوا في رسائلهم بين كون اللغة إلهاما وكون هذا الإلهام مرتبطا بنشأة الكون وأحوال النجوم وأن أصل الاختلاف في اللغات عندهم أن كل قوم نزلوا إقليما تولاهم " كوكب من الكواكب السبعة المدبرات فعقد لهم عقدا ؛ نشأ عليه صغيرهم ومات عليه كبيرهم " (٣) .

وقد أورد القاضي النعمان الإسماعيلي كثيرا من التأويلات الباطنية (٤) . كما تصورت الإسماعيلية اللغة على شكل نسق رياضي . وهذا يشبه الاتجاهات الحديثة الداعية إلى لغة عالمية محددة بحدود المنطق الرياضي ، فالتأويل عند الباطنية ليس تأويلا لغويا ، ولكنه تأويل باطني يستند إلى التلقي عن الإمام وكبار دعاته أصحاب مجالس الحكمة التأويلية .

والإسماعيلية متأثرة على العموم بالعلوم الطبيعية والرياضية وبنظريات الفلاسفة كنظرية " المثل " عند أفلاطون (٥) .

---

(١) انظر : ابن عربي / تفسير القرآن الكريم ج ١ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) انظر : أبو طالب المكي ؛ محمد بن علي بن عطية الحارثي ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد القاهرة - ١٩٣٣ م ، ج١ ص ٦٩ .

(٣) إخوان الصفاء - رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار صادر - بيروت - ١٩٥٧م ، المجلد الثالث ص ١١٥ .

(٤) انظر : القاضي النعمان ؛ ابن حيون أبو حنيفة بن محمد بن منصور ، أساس التأويل، تحقيق عارف تامر ، - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٠ ، ص ٣٥ .

(٥) انظر : د . محمد رياض العشري / التصور اللغوي عند الإسماعيلية ص ١٤٣ - ١٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى أية حال فإن أصحاب النظرة الباطنية لا حدود لتصوراتهم للغة ولا معيار لمفهومهم لباطنها ولذلك لا يمكن أن يقاس على ما يقولون .

أما أصحاب نظرية اللغة ومقتضياتها فقد مال أصحاب المنهج النقلي منهم - على اختلاف بينهم - إلى توقيفية الصلة بين الألفاظ والمعاني لأن القدرة الإلهية عندهم هي علة وجود العالم واللغة ينسحب عليها ما ينسحب على بقية مظاهر الوجود . كما مال أصحاب المنهج العقلي عموما إلى اعتبار دلالات الألفاظ حادثة من وضع الناس . فالمعتزلة مالوا إلى اعتبار الإنسان فاعلا على الحقيقة وأنه مختار في فعله واللغة جزء من تصورهم هذا (١) .

أما الأشاعرة الذين جمعوا بين العقل والنقل فقد كان لهم تصور مشترك حيث كانت نظرية الكسب أساس رأيهم في الجمع بين قضاء الله وقدره من ناحية والاختيار من ناحية ثانية . واللغة جزء من تصورهم هذا . والفخر الرازي هو أحد الأشاعرة الذين كرسوا هذه العلاقة المشتركة الجامعة ؛ ولكنه كان أميل إلى أن دلالة الألفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية حقيقية ؛ لأنها تتغير باختلاف الأمكنة والأزمنة ؛ والدلالة الذاتية لا تكون كذلك ، فالدلالة عنده نتيجة الوضع (٢) .

وبما أن الرازي يرى أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجية (٣) فقد واجه كثيرا من القضايا الكبرى كقدم العالم أو حدوثه ، إذ إن الخلافات تكون حول التصورات لا الحقائق ، وبذلك جمع بين آراء متناقضة أحيانا جمعا خلاّقا . كأن يقول أحدهم : إن العالم قديم ، ويقول آخر : إنه حادث فيكون ذلك خلافا حول التصورات الذهنية ، لا الحقائق الفعلية . وانتهى إلى أن الاسم غير المسمى ؛ كما قالت المعتزلة مختلفا في ذلك مع الكرّامية بل والأشعرية أنفسهم أيضا (٤) .

وبالتالي يمكن تلخيص موقف الفرق على النحو التالي :

١ - الفرق التي اعتمدت اللغة على الحقيقة أو على المجاز :

(أ) الفرق التي اعتمدت تقسيم الدلالة إلى حقيقية ومجازية واعتمدت التأويل اللغوي بالتالي على اختلاف بينها في مدى التوسع . وتشمل المعتزلة ، والأشاعرة ، والإباضية التي لم تتوسع في المجاز ولكنها كانت تلجأ إلى المجازات اللغوية والتأويل لتدعيم النص القرآني

---

(١) انظر : د . مصطفى مندور / اللغة بين العقل والمغامرة ص ٤٥ - ٤٧ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٢٣ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ج ١ ص ٢٤ .

(٤) انظر : المرجع نفسه ج ١ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتشابه بـالدليل اللغوي المتمثل بلغـة العـرب الجاهليـة [١] . وكذلـك الشـيعة الزيديـة والإثنـي عشرية [٢] .

(ب) الفرق التي اعتمدت اللغة على ظاهرها دون محاز أو تـأويل كالحنابلـة وبعض الفقهاء والمحدثين وهؤلاء كانوا يرون الصفات الـواردة فـي القـرآن الكريـم والحديـث الشـريف والموهمة بالتشبيه والتجسيم ـ تـدل علـى صفـات خاصـة بـالذات الإلهيـة وليـس علـى صفـات إنسانية وهو الذي عبر عنه بتعبير (الكيف مجهول) كما في آيات الاستواء ؛ على الرغم مـن أن بعض الفقهـاء وعلمـاء الأصـول كـانوا يـرون اللغـة علـى التوسـع كمـا رأينـا عنـد الإمـــام الشافعي [٣] .

(جـ) الفـرق التـي اعتمـدت اللغـة علـى ظاهرهـا ولجـأت إلـى التشـبيه والتجسيـــم كالكرّامية .

٢ ـ الفرق التي اعتمدت المعنى الظاهر والمعنى الباطن :

وتشمل المتصوفة الذين تصوروا أن لكل معنى ظاهر معنى آخـر باطنـا وأنـه لا يمكـن التوصل إلى المعنى الباطن الذي هو الحقيقة عندهم إلا بالمجاهدة والمرور بالأحوال والمقامـات حتى يتم الكشف .

كما تشمل الإسـماعيلية وغيرهـا مـن الفـرق الباطنيـة التـي رأت أن المعنـى البـاطني لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق مجالس الحكمة التأويليـة التـي تسـتأثر بعلـم البـاطن مـن دون سائر الناس .

والذي أظنه أن الفرق التي اعتمدت اللغة واستقامت عليها سواء أكان ذلك على الحقيقـة أم على المجاز ، قد كان لموقفها أصل في اللغة وبالتالي فموقفها يقوم على الحق الـذي تتعـدد وجوهه تعدد تنوع لا تعدد اختلاف كتعدد المناحي الممكنة في اللغة أما المشبهة والمجسـمة فـلا وجه لهم من اللغة وبالتالي فقد جانبوا الحق والصواب .

---

(١) انظر : بكر بن سعيد أعوشت ـ دراسات إسلامية في الأصول الإباضية ، الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ ، ص ٦٢ .

(٢) انظر : الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي / المراجعات ، دار علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ص ١٦٠ ـ ١٦٩ .

(٣) انظر : الإمام الشافعي / الرسالة ص ٢٨، ٢٩ ، ٣٠، ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمدارس التي لجأت إلى التأويل الباطني تخضع النص القرآني للمقاييس الإنسانية وتعتبر أن الله يرمز بنصوص القرآن الكريم رمزا ظاهرا لمعنى باطن وهذا مجاف للحقيقة اللغوية ولطبيعة النص الشرعي الذي يقتضي الإفادة في ضوء ما تعارف الناس عليه وبالتالي فلا وجه لها من اللغة وقد جانبت الحق والصواب . على الرغم من أن تأويلات الصوفية لا تخرج دوما على مقتضيات اللغة وإن خرجت يكون خروجها نسبيا ومحدودا في كثير من الأحيان . ومدارس التأويل الباطني تلتقي والاتجاه الرمزي في العصر الحاضر ولكنها حاولت إقحام االرمزية على النصوص الشرعية ذات الدلالة المتعلقة بالعقيدة وبالشريعة التي لها حدودها في حين قد تكون الرمزية مناسبة للأدب عموما وللشعر خصوصا الذي يعتمد التهويم والخروج على المألوف ؛ لأن ذلك لا يتعارض وطبيعته .

(ب) التأويل عند الإمام الرازي

قلنا : إن الإمام فخر الدين الرازي كان ممن يجمعون بين العقل والنقل ؛ وبهذا فهو واحد ممن أعادوا الاعتبار لسلطة النقل لتتبوأ مركزها الذي افتقدته مع تداعيات العقل ، التي بلغت أوجها عند المعتزلة .

ولقد كانت مسألة التوفيق بين العقل والنقل مسألة طبيعية ، تتناسب وما قد يلمسه المرء في موقفهم من توازن لا نلمسه عند غيرهم ، كما تتفق والثنائية التي اتسمت بها آراء الفخر الرازي والأشاعرة ، تلك الثنائية التي تنم عن قدرة واضحة على إقامة جسر متين يصل بين العقل والنقل ؛ يشبه الجسر الذي أقاموه بين الفكر واللغة حيث جاءت العلاقة بين العقل والنقل شكلا من أشكال التجسيد المادي للعلاقة بين الفكر واللغة .

لكن المشكلة التي واجهت الأشاعرة ، ومنهم الفخر الرازي ، تتلخص في الموقف الذي يمكن أن يتخذوه حين تتعارض الأدلة العقلية والنقلية . وعلى الرغم من أن النقل مقدم على العقل عند الأشاعرة عموما ، الا أن الأخذ بالأدلة العقلية عند الفخر الرازي ، في هذه الحالة أولى ؛ لأن الأدلة العقلية يقينية في حين أن الأدلة النقلية ظنية ؛ وبالتالي فهي كما قال :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" إما أن يقال إنها غير صحيحة ، أو أن يقال : إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها " (١) ، وأنها بالتالي بحاجة إلى تأويل .

وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت كاتبا في عصرنا يصنف الإمام الرازي ضمن دائرة المدارس العقلية في الفكر الإسلامي (٢) ، في حين أن الإمام الرازي كان يستند إلى النقل أساسا ، ولكنه كان يتحوط في صحة النص من ناحية ، وفي الأخذ بدلالته الظاهرة من ناحية ثانية ، وأن العقل هو الذي ينير طريق الوصول إلى الحقيقة .

وتبدو مسألة العقل والنقل مسألة عادية ؛ إذا نظرنا إليها في إطار عمليات المد والجزر التي شهدتها الثقافة الإسلامية بين تأثير النزعة العقلية عند الفلاسفة ، وما لابسها من تأثير يوناني يعتمد المنطق وطرق الاستدلال العقلية التي كانت مدار المعرفة عندهم ، وتأثير النزعة النقلية عند علماء الحديث والفقهاء عموما ؛ الذين تمسكوا بالنصوص وجعلوها مدار الاستدلال والمعرفة عندهم ؛ وما انتهجه علماء الكلام من طريقة في الاستدلال العقلي على العقائد الإيمانية التي تتضمنها النصوص الشرعية ذات الطابع النقلي حيث تقوم أصولهم الكلامية على الجمع بين العقل والنقل .

لكن المسألة تبدو أكثر تعقّدا حين ننظر إليها في إطار طبيعة النص الشرعي نفسه ؛ قرآنا وحديثا ؛ خصوصا النص القرآني الذي صرح القرآن الكريم نفسه أن من آياته آيات محكمات وأخر متشابهات . قال تعالى : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكّر إلا أولو الألباب** ﴾ (٣) .

فإذا كان أمر المحكم جليا واضحا لا يحتمل اللبس ، ولا يقتضي التأويل فإن الآيات المتشابهات تتسع دلالاتها ، وتتراتب مستويات فهمها والمدى الذي تتسع له العقول ، وما يكتنفها من سعة وضيق ، من أحادية وشمولية ، من ضحالة وعمق ، من قرب وبعد . وبالتالي فهي تقتضي النظر فيها وسبر أغوارها ، والإمساك بثناياها حتى يعرف وجه القصد منها في ضوء ما أوتي المرء من علم ودراية وخبرة وفي ضوء ما يحيط به من ظروف .

ولذلك كان التحذير الإلهي من اتباع المتشابه ، وأن ذلك صفة للذين في قلوبهم زيغ ،

---

(١) انظر : الفخر الرازي / أساس التقديس ، الفصل الثاني والثلاثون ص ٢٢٠ .

(٢) انظر : د . سفر الحوالي - منهج الأشاعرة في العقيدة . الطبعة الأولى ، الدار السلفية - الكويت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) آل عمران / الآية ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأن ذلك يهدف إلى الفتنة كما يهدف إلى التأويل الذي يخرج بالنص عن مقتضاه اللغوي . وقد حصر الله العلم بالتأويل في نفسه وفي الراسخين في العلم الذين يقولون آمنا به ، والآيات كلها ، المحكمات والمتشابهات من عند ربنا ؛ ويؤولونها في ضوء ما آتاهم الله من علم . وأظن أن الوقف بعد لفظ الجلالة غير مقنع والعطف هو الأولى ، لأنه لو كان الوقف هو الذي جاءت عليه الآية لكان معناها : والراسخون في العلم يقولون ذلك وغير الراسخين لا يقولون ؛ وهذا ما يخالف الواقع ، لأن جملة " يقولون " في هذه الحال ، تكون خبرا للمبتدأ والخبر فيه تمام المعنى . أما على العطف : فالتأويل يعرفه الراسخون في العلم وجملة يقولون حال للراسخين في العلم .

لقد فتح موضوع المتشابه في القرآن الكريم الباب لنقاش واسع حول مشروعية التأويل ، ومقتضياته ، وآفاقه وحدوده [١] .

ولقد اختلف المسلمون في التأويل اختلافهم في الحقيقة والمجاز ؛ فالذين أنكروا المجاز ممن أشرت إليهم ، رفضوا التأويل وسيلة للمعرفة . وكان قصارى قولهم : إنه إذا كانت الألفاظ والتراكيب الواردة في القرآن الكريم على الحقيقة فهي لا تقتضي التأويل وتفهم على ظاهرها . لكن الذين أقروا المجاز ؛ رأوا في التأويل طريقا إلى معرفة ما يتضمنه النص الشرعي حيث لا يسعف ظاهر اللفظ في الوصول إلى المعنى المراد .

وكان ممن أخذ بالتأويل المعتزلة ، والأشاعرة . وقد توسع المعتزلة في التأويل توسعهم في المجاز وذلك بما يتناسب ونزعتهم العقلية ؛ لكن دون خروج على مقتضيات اللغة ؛ حيث جاءت تأويلاتهم متناسبة وتصورهم للغة [٢] .

أما الأشاعرة فلم يتوسعوا في التأويل وإنما اقتصر التأويل عندهم ـ كما ورد عند الإمام فخر الدين الرازي ـ على : " صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال " [٣] .

وبهذا يتحوط الفخر الرازي والأشاعرة عموما في الأخذ بالتأويل ويعتبرونه ضرورة اقتضتها استحالة نهوض ظاهر اللفظ بالمعنى المناسب ؛ في حين امتنع الحنابلة عموما ؛

---

(١) للتوسع في التأويل انظر : د . سيد احمد عبد الغفار : ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ، دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ، ص ١٨ .

(٢) انظر : القاضي عبد الجبار / متشابه القرآن ـ القسم الأول والقسم الثاني ،
وانظر: الزمخشري / الكشاف ج ١ ص ١٢١ ، ٣٠١ ،
وانظر: الزمخشري / الكشاف ج ٣ ص ٥٢ ، تفسير آيات الاستواء) .

(٣) انظر : الفخر الرازي / أساس التقديس ص ٢٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم ابن تيمية ، وابن القيم عن الأخذ بالتأويل كامتناعهم عن الأخذ بالمجاز . لأنهم كانوا يرون أخذ النص وخصوصا النص القرآني [١] على ظاهره ، ولأن الصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم خاصة بذاته وليس لمشابهة البشر كما في آيات الاستواء على العرش وما إلى ذلك. وعلى أية حال ، فلننظر فيما قاله الفخر الرازي في المحكم والمتشابه ، ومن ثم في التأويل .

لقد عقد الفخر الرازي كتابه " أساس التقديس " على فكرة التأويل ، والمحكم والمتشابه كما طرح فكرة التأويل في تفسيره الكبير . وقد ناقش آراء السلف في التأويل والمحكم والمتشابه ، كما طرح آراء المشبهة والمجسمة ، وانتهى إلى طرح رأيه في المحكم والمتشابه ؛ حيث قسم المتشابه إلى مجمل ومؤول والمجمل هو ما لا يرجح أحد معنييه على الآخر .

وأما المؤول فهو ما يصرف عن ظاهره إلى معناه المرجوح لاستحالة قيام ظاهره بالمعنى المراد . وكانت خلاصة رأيه أن القرآن الكريم وجه إلى الناس كافة ، فلو كان كله محكما لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد . ووجود المحكم والمتشابه يجعل لكل مذهب أملا في النظر فيه والانتفاع به ، ووجود المحكم والمتشابه يجعل النظر في القرآن الكريم ، وتدبره ، والاستدلال عليه واجبا يخرج الناظر من ظلمة التقليد إلى ضياء الاستدلال والحجة . وما في ذلك من الاستعانة بتحصيل علوم كثيرة ؛ من علم اللغة ، والنحو وأصول الفقه ، وطرق الترجيح .

وأهم ما في الأمر عند الرازي ـ أن العوام إذا ووجهوا بالحقائق دفعة واحدة لم يدركوا المقصد فاحتيج إلى مخاطبتهم بما هو قريب مما تخيلوه وتوهموه واعتادوه وألفوه ؛ كالجسم والحيز مع مزج ذلك بما يدل على الحق الصريح [٢] .

وفي التفسير الكبير تعرض الفخر الرازي كثيرا للمحكم والمتشابه ، وللتأويل ؛ فحين فسر فواتح السور " ألم .. طه " .. الخ ، ذكر أنها من المتشابه الذي يقتضي التأويل ، وأورد الآراء المختلفة التي قيلت فيها ، ورفض الآراء التي ذهبت إلى أنها من المتشابه ، والمتشابه لا يعلمه إلا الله ؛ على قاعدة الوقف بعد لفظ الجلالة ، كما ناقش آراء من توهموا أن المراد من هذه الفواتح معلوم ؛ كأن تكون أسماء للسور ، أو أسماء لله تعالى ، أو أنها احتجاج على

---

(١) انظر : ابن تيمية / مقدمة في أصول التفسير ومجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية .

(٢) انظر : الفخر الرازي / أساس التقديس ، ص ١٩١- ١٩٢ .

ولمزيد من التوسع حول الآراء المختلفة في المحكم والمتشابه : أنظر : السيوطي / الإتقان في علوم القرآن ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ، ج ٢ ص ٣ ـ ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكفار بأن القرآن ليس إلا من هذه الحروف ، أو انها طريقة لإسماع القرآن للعرب ، أو أنها قسم بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها ؛ لأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة ، وأصول كلام الأمم (اسمعوها مقطعة ثم مركبة) .

وفي النهاية مال إلى رأي قطرب الذي يرى أنها جاءت لشد انتباه المشركين للأستماع إلى القرآن الكريم ؛ مبنيًا أن الله تعالى أورد فيها نصف حروف المعجم ؛ أربعة عشر في تسع وعشرين سورة [١] .

لقد أدار الفخر الرازي حوارا مكثفا ومعمقا حول التأويل وضرورته ؛ ففي بحثه عن الدلائل الدالة على أنه تعالى منزه عن الجسمية والحيز والجهة ؛ استند إلى الآيات المحكمات كقوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ [٢] وكقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ [٣] وغيرهما من الآيات الدالة على نفي الجهة والحيز والجسمية والرد على من قالوا بها [٤] ، ثم أوّل الآيات المتشابهات ؛ التي قد توهم بالجسمية والجهة . قال في قوله تعالى : ﴿ **الله نور السماوات والأرض** ﴾ [٥] إن معناها منوّر السماوات والأرض هاد لأهل السماوات والأرض .

﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ (الحديد ٤) ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ (ق ١٦) ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ (المجادلة ٧) المراد منه القرب بالعلم والقدرة الإلهية . قوله تعالى لموسى وهرون : ﴿ **إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ (طه ٤٦) : المعية هنا ليست إلا بالحفظ والعلم والرحمة .

---

(١) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٢ ، ٣ (تفسير سورة طه) .
كذلك انظر : المرجع نفسه ج ٢ ص ٢ -١٢ (تفسير ألم وغيرها من الفواتح) .

(٢) سورة الإخلاص / الآيات ١،٢،٣،٤.

(٣) سورة الشورى / الآية ١١ .

(٤) انظر : الفخر الرازي / أساس التقديس ص ٣٠ .

(٥) سورة النور / الآية ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك أوّلَ لفظة الصورة الواردة في الأحاديث (الأخبار) كما في قوله - صلى الله عليه وسلم - (فإن الله تعالى خلق آدم على صورته) (١) أوّلها بالصفة والمعنى : يظهر لهم من البطش وشدة البأس ما لم يألفوه ولم يعتادوه في معاملة (٢) ، في حين أن الإمام أحمد بن حنبل لم يؤولها ، بل أبقى المعنى على ظاهره (٣) .

كذلك أوّل الفخر الرازي لفظ " النفس " في قوله تعالى : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ (طه ٤١) وفي ﴿ **تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك** ﴾ (المائدة ١١٦) .. الخ ، أولها على وجوه منها : البدن والدم والروح والعقل (٤) .

كما أول لفظ " الصمد " في قوله تعالى { الله الصمد } لأن لفظ الصمد يعني الجسم المصمت الذي لا جوف له ، وأصلها (الصمت) حيث احتج بها جهّال المشبهة على أنه تعالى جسم ؛ وذلك أن الصمدفَعَل بمعنى مفعول من صمد إليه أي : قصده ؛ أي أنه المصمود إليه في الحوائج ؛ مدللا على ذلك بتفسير ابن عباس لها ، وبقول الشاعر :

علوته بحسامي ثم قلت له خذها حذيف فانت السيد الصمد (٥)

كما أول " الوجه " في قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ (الرحمن ٢٦ - ٢٧) بأنه بمعنى الرضى .

وكذلك أول " العين " في قوله تعالى : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا** ﴾ (هود ٣٧) ، ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ (طه ٣٩) على أنها تعني شدة العناية والحراسة ، لأن العناية والميل والرغبة في الشيء تجعلك تديم النظر . فالعين كناية عن شدة العناية .

وكذلك لفظ " اليد " في قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ (الفتح ١٠) بمعنى القدرة وكذلك النعمة . ويمكن حمله على المبالغة في الحفظ والحراسة وشدة العناية ، كما في قوله تعالى ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي** ﴾ (ص ٧٥) ﴿ **بل يداه**

---

(١) الإمام أحمد / المسند ٢/٢٤٤ ، ٢٥١ ، والإمام البخاري / الإستئذان ، ومسلم / البر ١١٥ .

(٢) انظر : الفخر الرازي / اساس التقديس ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣) انظر : الإمام احمد بن حنبل ؛ عبد الله احمد بن حنبل / السنة. تحقيق أبي هاجر محمد السعد بن بسيوني زغلول الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ص ٦٨ .

(٤) انظر : الرازي / أساس التقديس ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٥) انظر : المرجع نفسه ص ١٢٤ - ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مبسوطتـــــــان ﴾ (المائدة ٦٤) (١) ، واليمين هي القـوة والقدرة أيضـا . والجنـب (جنـب الله) هو الواجب ؛ لأنه يجـانب بعملـه غير اللـه . والسـاق : شـدة أهـوال يـوم القيامـة ، وكذلك أول الآيات الستة الواردة بلفظ الاستواء على العرش والمشتملة على لفظ الفوق والعلو والعروج والصعود والإنزال والتنزيل وكذلك الآيات الدالـة علـى أنـه تعـالى فـي السـماء كقولـه تعالى : ﴿ **أم أمنتم من في السماء** ﴾ (الملك ١٧) والرفع إليه كما قال في عيسى بـن مريـم : ﴿ **إني متوفيك ورافعك إلي** ﴾ (آل عمران ٥٥) .

وقد رد الرازي على الكرّامية وأثبت بطلان حججهم ، وانتهى إلـى أنهـا تحمـل علـى استيلائه على العرش . وأنه ليس المراد من الاستواء الاستقرار ، وإنمـا الاستيلاء والقهر ونفاذ القدر ، وجريان الأحكام الإلهية . وقد دلل على صحة ما ذهب إليه بأن هذا الوجه الـذي ذهب إليه " مستقيم على قانون اللغة " وقد استدل ، كما استدل الإمام الغزالي والقاضي عبد الجبار من قبل بقول الشاعر الأخطل :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وكانت علة الرازي ـ فيما ذهب إليه ـ أن الله تعالى إنمـا أنـزل القرآن الكريـم بحسـب عرف أهل اللسان وعاداتهم . والمراد بالاستيلاء القدرة التامة التي لا منازع لها ولا معـارض ولا مدافع (٢) .

وبهذا يختلف الرازي عما ذهب إليه الإمام أحمـد بن حنبـل الذي روى في كتابـــــــه " السنة " عددا من الأحاديث عن أبيه وآخرين قـد يفهـم منهـا معنـى التشـبيه والتجسـيم (٣) علـى الرغم من أن الإمام أحمد وأهل السنة عموما كانوا ينكرون التشبيه والتجسيم ويرون أن ما ورد مما قد يوهم بذلك ليس من باب مشابهة البشر وإنما هي صفـات خاصـة بـذات اللـه وقصـارى قولهم في الاستواء على العـرش مثـلا : إن الاسـتواء معلـوم والكيـف مجهـول والإيمـــان بـــه واجب (٤) .

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص ١٥٠ ـ ١٧١ .

(٢) انظر : الفخر الرازي / أساس التقديس ص ٢٠٢ .

(٣) انظر : الإمام أحمد بن حنبل / السنة ص ٧٠ ـ ٧٩ .

(٤) انظر : علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ؛ مختصر شرح العقيدة الطحاوية ، اختصره بعض العلماء وحققه محمد ناصر الدين الألباني ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنش والتوزيع بالإسكندرية ، ص ١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أورد الإمام ابن تيمية في كتبه ردودا على من قالوا بالتأويل بيّن فيها وجهة نظره التي تتلخص في أن ما ورد في القرآن الكريم ، كان على الحقيقة وأنه لا يقتضي التأويل (١) .

وقد كانت حجة الذين رأوا أن تأويل الآيات المتشابهات غير جائز هي أن ذلك التأويل جاء على سبيل الظن ؛ والقول بالظن في القرآن الكريم غير جائز . وكان رد الفخر الرازي على ذلك أن بعض الأصوليين يجيزون الأخذ بخبر الآحاد في ذات الله وما يتعلق بالعقيدة على الرغم من أنها - من وجهة نظره - لا تفيد القطع ولا اليقين وبالتالي فهو لا يجيز التمسك في أصول الدين بأخبار الآحاد . لكنه يجيز ذلك في اللغة (٢) .

وقد أوضح الرازي موقفه من التأويل على النحو التالي قال : إن جوّزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل ، وإن لم نجوّز التأويل فوّضنا العلم بها إلى الله تعالى ؛ فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات " (٣) .

وعلى أية حال فالفخر الرازي هنا يجيز التأويل وعدمه ، ويعتبر التأويل شكلا من أشكال الاجتهاد الخاضع لمبدأ الصواب والخطأ ، فالتأويل عنده لون من ألوان إجهاد الفكر وتسخير العلم والثقافة للوصول إلى حقيقة المعنى ماأمكنه ذلك . وهو موقف معقول ومقبول يفتح الباب ؛ ولكن بقدر يفيد الدلالة والعقيدة والشرع ، ولا يفتحه على مصراعيه حتى يكون نهبا للتقول على غير وجه والضرب على غير هدى .

وهذا الموقف ربما يكون محكوما بالأصل الأشعري الذي وضعه الإمام أبو الحسن الأشعري ، والذي يقترب فيه من قول جمهور الفقهاء والمحدثين - ربما بردة فعل على المعتزلة الذين كان منهم - ثم رفض مبادئهم وأعلن تنصّله منها ، ذلك الأصل الذي يرد فيه على المشبهة والمجسّمة .

---

(١) لمزيد من التوسع حول رأي الإمام ابن تيمية في التأويل انظر : مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ، وانظر : الإيمان ص ٨٥ ، ٩٢، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٧١ ، وكذلك :
الفتاوى الكبرى تحقيق وتعليق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان - الجزء الأول ص ١٢٧ - ١٥٨ .

(٢) انظر الفخر الرازي / أساس التقديس ص ٢١٦ - ٢١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال في تفسير الاستواء : " هو استواء يليق به من غير طول استقرار " (١) . كما أوضح " أن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى اذي أراده ، استواء منزها عن الممارسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته " (٢) .

كما رفض الأشعري قول المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ إنه استولى وملك وقهر ، قال : " وجحدوا أن يكون الله عز وجل مستويا على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة " (٣) وبهذا يختلف الرازي مع الأشعري في معنى الاستواء .

(جـ) ملامح تأثير التصور اللغوي للإمام فخر الدين الرازي على مفاهيمه

لقد تبينت لنا في الفصول السابقة معالم تصورات الإمام فخر الدين الرازي للغة ؛ وبذلك يبرز أمامنا التساؤل حول مدى تأثير تصوراته للغة ؛ فيما طرح من منطلقات ومفاهيم كلامية ، وقواعد لأصول الفقه .

يركز معظم الكتاب ، الذين كتبوا عن علماء الأصول والمتكلمين ، على تأثير مفاهيم هؤلاء وأولئك فيما طرحوا من تصورات للغة . وقد أكثروا - في هذا السياق - من الحديث عن تطويع - المتكلمين بشكل خاص - للغة لتناسب مفاهيمهم ؛ فقد كانوا يطوعون نصوص القرآن والحديث لخدمة أغراضهم ومفاهيمهم (٤) .

وهذا أمر وارد ، وهو لا يختلف وما ذهب إليه هذا البحث ، حين استند إلى أن العلاقة بين اللغة والفكر علاقة متبادلة . فحديث هؤلاء الكتاب عن تأثر النص اللغوي بالمفاهيم ، يعزز فكرة هذا البحث . لكنّ قصر الأمر على تأثير المفاهيم في اللغة ؛ وبمعنى آخر تأثير الفكر في اللغة ، ينطوي على نظرة أحادية الجانب ، ترى تأثير الفكر في اللغة ، ولا ترى تأثير اللغة في الفكر وهو ما ناقشته في الفصل الأول من هذا البحث ؛ وبينت أنه لا يستقيم . لقد كان مستند هؤلاء الكتاب ، أن بعض المتكلمين ، كانوا يطوّعون اللغة لصالح أفكارهم .

---

(١) انظر : أبو الحسن الأشعري / الإبانة عن أصول الديانة ج١ ص ١٠٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق نفسه ج١ ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٨ .

(٤) انظر مثلا : طلال يحيى الطويجي - الرازي النحوي من خلال تفسيره - رسالة ماجستير باشراف / د. ياسر قاصد الزيدي - جامعة الموصل ، الفصل الخامس - فقرة ٢ أثر العقيدة في التوجيه النحوي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفكرة التطويع هذه ، تبدو مبالغًا فيها من ناحية ، وهي من ناحية ثانية ، تحمل في طياتها فكرة الاستجابة ؛ فاللغة عند هؤلاء طيّعة ، فهي بالتالي تمتلك سمات تجعلها قابلة للاستجابة ، ولاستيعاب المفاهيم المختلفة . والذين طوّعوا اللغة لا بد أنهم وجدوا من طبيعتها ما يساعدهم على تطويعها : وجدوا صرفها ، ونحوها قابلين للتوسع ويحملان وجوها متعددة ؛ وكذلك وجدوا دلالات ألفاظها فيها من السعة ، ما يسعفهم في حملها على الوجوه التي حملوها عليها . وفي كثير من الأحيان كان أصحاب مفهومين أو أكثر يحتجون بالحجة نفسها ، بالآية نفسها ، أو بالحديث نفسه ، على إثبات ما يذهبون إليه ؛ كما سنرى في هذا الفصل إن شاء الله . وهكذا كان النص الواحد يحمل على وجهين أو أكثر ، إما في بنيته الصوتية ، أو في بنيته الصرفية ، أو النحوية ، أو في دلالة ألفاظه . وهذا يعني أن اللغة قابلة لاستيعاب الأفكار المختلفة المتعددة ، فهي قادرة على حمل المنطويات المتعددة للمفاهيم المتباينة ؛ تباين تنوع ، لا تباين اختلاف . والفيصل في هذا مدى استناد المتكلم إلى اللغة ، وما تسعفه به طبيعتها . أما ما لا يستند إلى اللغة فهو ليس من موضوع هذا البحث ، وقد يكون إسقاطات متوهمة تقوم على التعسف ، دون أن تستند إلى سند محدد .

فمدار البحث ؛ هو تلك العلاقة التبادلية بين الفكر واللغة ، وبهذا تستقيم المعادلة على حديها ؛ فالعلل التي تتعلل بها الفرق الإسلامية المتعددة المتنوعة ؛ التي تقع ضمن الدائرة العامة للعقيدة الإسلامية وللشريعة المنبثقة عنها ، كانت تستند - عموما - إلى اللغة ؛ لأنها في الأساس كانت تستند إلى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ؛ وكلاهما نص لغوي .

والفرق التي خرجت بالنص القرآني ، ونص الحديث عن سياقه اللغوي وحاولت إقحام أفكارها عليه - دون سند لغوي - خرجت به إلى دائرة الوهم ؛ فلا يقاس على ما تطرح من أوهام وخيالات .

وإذا كنت أوضحت تأثير التصورات اللغوية على الفرق الإسلامية عموما ، فكيف تأثرت مفاهيم الإمام فخر الدين الرازي بتصوره للغة ، الذي أوضحته في الفصل السابق ؛ وإلى أي مدى يمكن أن ينسحب هذا الأمر على الأشاعرة ؛ وخصوصا في آخر مراحل تطورهم ؟

كان تأثير اللغة في مفاهيم الفخر الرازي بعضه في مفاهيمه العامة ، وبعضه الآخر في مفاهيمه الكلامية ، ويمكننا أن نتتبع هذا التأثير من خلال تتبع تفسيره لبعض نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وعلى المحورين العام والخاص .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ - ملامح تأثير اللغة في مفاهيمه العامة :

(أ) في سياق تفسيره قوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين** ﴾ (١) أوضح أنه ليس من شرط كونه هدى ، أن يكون هدى في كل شيء ، بل يكفي أن يكون هدى في بعض الأشياء ؛ كالتعريف بالشرائع وتأكيد ما في العقول . وقد علل ذلك بعلة لغوية هي : أن وصفه بأنه هدىً جاء من غير تقييد في اللفظ على الرغم من أنه يستحيل أن يكون هدى في إثبات الخالق وصفاته وإثبات النبوة ، فمجيء لفظ " هدى " مطلقا لم يفد الهداية في كل شيء ؛ واستنتج من ذلك أن المطلق لا يقتضي العموم (٢) .

(ب) وفي تفسيره سورة الشرح وفي تفسيره قوله تعالى : ﴿ **ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك** ﴾ (٣) . أشار إلى أن علماء اللغة بينوا أن الأصل فيه أن الظهر إذا أثقل الحمل عليه سمع له نقيض ؛ أي صوت خفي وهو صوت المحامل والرّحال والأضلاع ، فالبعير ، إذا أثقله الحمل ، كان في وضع جعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلا على وضع الرسول (ص) حين كانت الأوزار تثقل كاهله .. وهكذا استخدم أنقض من النقيض وما فيه من تأثيرات صوتية لبيان ما حل بالرسول (ص) (٤) .

(جـ) روي عن ابن عباس ومقاتل والزجاج والفراء أنهم كانوا يرون تكرار لفظ اليسر في قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ﴾ (٥) ، ومجيئه منكّرا دليلاً على أن كلاً من اليسرين المذكورين مختلف عن الآخر ؛ أما العسر فمجيئه معرفًا بالألف واللام وعدم وجود معهود سابق دليل على أن اللفظين شيء واحد .

وقد أشار الرازي إلى أن الجرجاني قد رفض ذلك لأنه لا يلزم من وضع العربية في التعريف والتنكير .

والذي يراه الرازي هو أن التنكير يفيد التضخيم . كأنه قيل : إن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا عظيما ؛ وأي يسر .

---

(١) البقرة / الآية ٢ .

(٢) انظر : الرازي التفسير الكبير ج ٢ ص ٢٤ .

(٣) الشرح : الآيتان ٢، ٣ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ٤ .

(٥) الشرح : الآية ٥ والآية ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واليسر لا يكون مع العسر لأنهما ضدان فلا يجتمعان . ولكن لما كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل كان متعلقا به ، فكان كالقرين له [١] .

والرازي هنا استخدم دلالة التنكير على التفخيم وما يوحي به ذلك من دلالات نفسية تتحرك في المجال الحيوي للكلمة من خلال تصوره للدلالة كجزء من تصوره العام للغة لإيضاح معنى التنكير في النص القرآني . وإن كنت لا أرى وجها لما ذهب إليه الفخر الرازي وأميل إلى أن اليسر ينبثق من العسر والعسر محدد . وليس شرطا أن يكون معهودًا في الثانية . فالعسر ؛ الذي هو اسم معنى ؛ عنه ينبثق وجه من وجوه اليسر غير محدد ، ولذلك جاء منكرا . وبالإضافة إلى ذلك فإن التنكير قد يأتي للتفخيم ، كما أن التعريف كذلك ، قد يأتي للتفخيم هو أيضا . وقد ذكر الرازي ذلك في تفسيره سورة البيّنة حيث أشار إلى أن لفظ " البينة " في قوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة * فيها كتب قيمة** ﴾ [٢] جاء معرفًا والتعريف قد يفيد التفخيم وكذلك التنكير ، وأن الله جمعهما هنا في هذه الآية وفي حق الرسول عليه السلام فبدأ بالتعريف وهو لفظ (البينة) ثم ثنّى بالتنكير فقال : (رسول من الله) أي : هو رسول وأيُّ رسول [٣] .

(د) فسر " الحطمة " في قوله تعالى : ﴿ **كلا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة** ﴾ [٤] من الدلالات النفسية للفظ الحطمة الذي قال عنه المبرد : إن معناه : النار التي تحطم كل من وقع فيها . ورجل حطمة : أي شديد الأكل ، يأتي على زاد القوم . وأصل الحطم في اللغة الكسر . ويقال : " شر الرعاء الحطمة " لأنه يحطم الماشية أي يكسرها عند سوقها لعنفه ، وقال مقاتل : هي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب [٥] .

(هـ) وفي تفسيره سورة العلق ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [٦] ربط بين العلق " الحالة الخسيسة " والعلم بحقائق الأشياء " الحالة الشريفة " وأشار إلى أن الآيات بدأت

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ٦ ، ٧ .

(٢) البينة / الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ٤١ .

(٤) الهمزة : ٤، ٥، ٦ .

(٥) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ٩٣ .

(٦) انظر : العلق : ١، ٢، ٣، ٤، ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والعلم والشريعة من خلال الحديث عن الرب والخلق ، ثم تحدث عن الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالعلم . فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثاني إلى النبوة وقدّم الأول على الثاني تنبيها إلى أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية [١] .

فتصوره للنظم في اللغة وما فيه من تقديم وتأخير هو الذي جعله يرى في الآية تقديما للأهم على المهم .

(و) وفي سياق المناقشات اللغوية العامة استنتج الرازي أن لفظ ذلك الكتاب في قوله تعالى : ﴿ **الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ يفيد معنى هذا الكتاب ؛ لأن الأصل هو " ذا " والكاف للمخاطبة واللام لتأكيد معنى الإشارة ؛ فهي لا تفيد البعد في المعنى الوضعي الأصلي والعرف هو الذي جعلها مختصة بالإشارة إلى البعيد . وقد حمل الرازي المعنى على مقتضى المعنى الوضعي الأصلي اللغوي ، لا على مقتضى المعنى العرفي [٢] وهو من نتائج تصوره للغة ، حيث لم يرجح المعنى العرفي على المعنى اللغوي لأن المعنى اللغوي هو الأصل ولأنه هو الذي يتناسب ودلالة الكتاب الذي هو القرآن الكريم الموجود بين يدي الناس والذي يشار إليه بوسيلة الإشارة إلى القريب .

(ز) وفي تفسير سورة الأعلى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ [٣] أوضح أن سبح اسم ربك بمعنى سبح ربك ، وذلك لأن الاسم في الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف ولا يجب تنزيهها كما يجب في الله تعالى لأن ما هو في غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه ، وقد دلّك على ذلك بأنه يقال : سبح اسمك ، ومجد ذكرك ، وأنه يقال : سلام على المجلس العالي وأن لبيد ابن ربيعة قال : إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . أي : السلام . وقد علل الرازي ما ذهب إليه ، بأنه ، طريقة مشهورة في اللغة [٤]

وهذا يعني أن الإمام فخر الدين الرازي يعتمد ما اشتهر عند أهل اللغة ويعتبره مستندا وحجة في الدلالة وهذا وجه من وجوه تأثر مفاهيمه العامة بتصوره للغة .

---

(١) الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ج ٢ ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) الأعلى / ١ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ح) وعند تفسيره سورة " النازعات " ذكر في تفسيره قوله تعالى : ﴿ **والنازعات غرقا * والناشطات نشطا** ﴾ (١) أن النازعات هي النجوم كما قال الحسن البصري ، فكأنها تنزع من تحت الأرض فتنجذب إلى ما فوق الأرض فصحّ أن يقال : إنها نازعة على قياس اللابن والتامر . وكذلك " الناشطات " التي قال فيها الزمخشري في الكشاف : إنها تخرج من برج إلى برج من قولك : ثور ناشط إذا أخرج من بلد إلى بلد (٢) .

وقد علق الرازي على النازعات والناشطات بأن النازعات إشارة إلى حركتها اليومية والناطشات إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج وهو حركتها الخاصة بها في أفلاكها الخاصة . وقد اشار الرازي إلى أن حركات النجوم اليومية قسرية في حين أن حركاتها من برج إلى برج ليست قسرية بل ملائمة لذواتها . ولذلك عبر عن الأول بالنزع وعن الثاني بالنشط (٣) .

وليس الأمر كذلك ، لأن حركة الكواكب كلها غير إرادية فهي تدور حول ذاتها من ناحية وحول الشمس من ناحية ثانية أما النجوم فليس هناك ما يؤكد حركتها .

وفي سورة النازعات نفسها فسر قوله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة * أبصارها خاشعة** ﴾ (٤) مشيرا إلى قول الكسائي : إن الجواب المضمر هو أن القيامة واقعة . وقد استند في ذلك إلى آيات أخريات وردت في القرآن الكريم ﴿ **والذاريات ذروا ... إنما توعدون لصادق**﴾ ﴿ **والمرسلات عرفا ... إنما توعدون لواقع** ﴾ ، ثم استنتج ما يلي : بما أن ذلك صح في تلك السور فإنه يصح أيضا في هذا السياق . وقد علل ذلك بالنظم الذي يتسع ليشمل القرآن الكريم كله ، ولا يقتصر على التركيب النحوي للجملة القرآنية ، فالقرآن الكريم عنده " كالسورة الواحدة " (٥) .

(ط) كنت قد أشرت إلى أن الإمام فخر الدين الرازي يرفض ما لا تقره اللغة من دلالات الألفاظ والحروف ؛ لأنه : حسب رأي الرازي - لا يجوز في حق الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز . وأضاف : لأن هذا يفتح باب من يزعم أن لكل ظاهر باطنا . وهو بهذا يرفض فكرة الباطنية من أساسها ويعتبر دلالة حروف فواتح

---

(١) النازعات / الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) الزمخشري / الكشاف ج ٤ ص ٢١٢ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٤) النازعات / الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٥) الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السور مثلا هي دلالتها اللغوية ولا تحمل رموزا ولا أسرارا كما زعمت الباطنية . ذلك لأن - حمل دلالتها على بعضها دون بعضها الآخر ، تحكم لا تدل عليه اللغة أصلا (١) .

وهو بهذا ينطلق من تصوره للغة القائم على أن ألفاظها تحمل الدلالة الحقيقية ، والمجازية ولا تحمل أية دلالة باطنية ؛ ليقيم أساسا عاما لفهم النص القرآني .

(ي) كنت قد أشرت في الفصل السابق إلى أن التقديم في الذكر عند الرازي يدل على التقديم في الدرجة ، ففي أثناء تفسيره قوله تعالى : ﴿ **والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ (٢) استدل بتقديم ما تقدم ذكره في النظم اللغوي من خلال تصوره العام للنظم في اللغة على أن ما تقدم في الذكرمتقدم في الدرجة (٣) .

وفي السياق العام لفكرة التقديم والتأخير أثبت الفخر الرازي أن الترتيب الذي جاء في القرآن الكريم هو الترتيب الصحيح من قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبد الكتاب ولم يجعل له عوجًا * قيمًا** ...﴾ (٤) حيث أورد ما ذهب إليه الواحدي من أن جميع أهل اللغة والتفسير قالوا : هذا من التقديم والتأخير . والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا .

وقد رد الفخر الرازي رأي علماء اللغة والتفسير جميعًا مستندًا إلى اللغة وتصوره لها ضمن سياق النظم ، لأن دلالة : (لم يجعل له عوجًا) تتعلق بكونه كاملاً في ذاته ؛ لأن العوج والاستقامة متعلقان بذات الشيء ، ولأن دلالة (قيمًا) تتعلق بكونه مكملا لغيره . والقيم متعلق بغيره . والكامل في ذاته مقدم على المكمل لغيره ، فالترتيب الصحيح هو ما ورد في الآية (٥) . والنظم هو تناسب الترتيب اللفظي مع ترتيب المعنى في الذهن .

(د) بعض ملامح تأثير اللغة على مفاهيمه الكلامية

١ - *بعض ملامح التأثير على مفهومه لذات الله :*

(أ) في إعراب " لا إله إلا الله " أورد آراء النحويين ومنها قولهم : كلمة " لا " هنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية وإذا انتفت الماهية انتفت كل أفراد الماهية . والله اسم علم للذات المعينة ؛ إذ لو كان اسم معنى لكان محتملا للكثرة ولما أفاد التوحيد . وكذلك قولهم : استحقت (لا) عمل إن ، لمشابهتها لها من وجهين ؛ أحدهما : ملازمة كل منهما

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ١٨٠ .

(٢) البقرة / الآية ٢٨٥ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٤) الكهف / الآية ١ .

(٥) انظر : التفسير الكبير ج ٢١ ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسماء ، وثانيهما : تناقضهما ؛ فالأولى لتأكيد الثبوت والثانية لتأكيد النفي ، وعليه كان يجب أن يقولوا : لا رجلا ذاهب ، إلا أنهم بنوا (لا) مع (ما يدخل عليها من الاسم المفرد على الفتح) . أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه . وأما " الفتح " فتوفيقًا بين دليل الإعراب ودليل البناء [١] وهكذا عقد الإمام الرازي على تصوره للغة في الإعراب والبناء والنفي للماهية ، دلالة عبارة التوحيد الخالص " لا إله إلا الله " .

(ب) استدل الفخر الرازي بقوله تعالى : ﴿ **إنني أنا الله لا إله ألا أنا فاعبدني** ﴾ [٢] بأن علم الأصول مقدم على علم الفروع ، لأن التوحيد من الأصول والعبادة من الفروع . فالترتيب الذي جاءت به الآية ضمن سياق النظم القرآني يتناسب لفظه ومضمونه ؛ فالترتيب في اللفظ جاء متسقا وترتيب المعنى ؛ فقوله تعالى " لا إله إلا أنا " الذي يدل على التوحيد جاء مقدما على قوله " فاعبدني " الذي يدل على العبادة . وكذلك فإن الفاء في قوله (فاعبدني) تدل على ان العبادة جاءت نتيجة الألوهية [٣] .

(جـ) في تفسيره قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق** ﴾ [٤] ذكر أن الرب من صفات الفعل ، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل . وقد جاء ذكر الرب هنا وليس الله ؛ لأنه أمر بالعبادة ؛ وهو يستوجب العبادة بصفات الفعل وليس بصفات الذات ؛ فكان أبلغ في الحث على الطاعة [٥] .

فاللغة هي مستند الرازي فيما ذهب إليه في التفريق بين لفظ " الله" ولفظ " الرب" الذي يتناسب والعبادة .

٢ ـ ***بعض ملامح التأثير على مفهومه لصفات الله :***

(أ) أورد ما ذهبت إليه المجسمة في إثبات العلو بالمكان بقوله : ﴿ **ربك الأعلى** ﴾ [٦] وقد أكد الرازي أن العلو بالجهة مستحيل على الله ؛ وكانت حجته أن ما بعد هذه

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١١ .

(٢) طه / الآية ١٤ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٩ .

(٤) العلق / الآيتان ١ ، ٢ .

(٥) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٤ ، ١٥ .

(٦) سورة الأعلى / الآية ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآية ﴿ **الذي خلق فسوّى** ﴾ (١) وتناسب اللفظ والمعنى هو الذي جعله يذهب إلى أن الخالقية تناسب العلو الدال على القدرة ، لا العلو الدال على الجهة .

فالنسق اللغوي هو الذي جعله يذهب إلى ما ذهب إليه ، كما رد على قول بعض الملحدين الذين حاولوا استنتاج أن " الأعلى " تعني أن ثمة ربّين أحدهما عال والآخر أعلى منه (٢) .

(ب) وفي تفسيره سورة البقرة أورد في قوله تعالى : ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم** ﴾ (٣) أن هذه الآية من أقوى الدلائل على نفي التجسيم وإثبات التنزيه لأن الآية تعني : أن الجهتين مملوكتان لله ، ولما كانت الجهة أمرا ممتدا في الوهم طولا وعرضا وعمقا والبارئ كان قبل خلق العالم منزها عن الجهات ؛ ولو كان جسما لكان وجهه مختصا بجانب معين وجهة معينة فاستخدام (أينما .. فثم) يدل على أنه ليس في جهة (٤) .

(جـ) كما استند إلى سعة اللغة في الرد على الملحدين الذين حاولوا تبرير إلحادهم من خلال طعنهم في قوله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ (٥) معتبرين أن ذلك لا يستقيم إلا إذا كان الحاشر غير الرحمن . أما إذا كان هو الرحمن فالكلام - عندهم - لا يستقيم .

وقد أورد إجابة المسلمين بأنها تعني : نحشرهم إلى كرامة الرحمن (٦) .

والذي أظنه أن المعنى يستقيم دون حاجة إلى التأويل ، فالله لا يخضع للمقاييس الإنسانية في الزمان والمكان ، ولفظ الرحمن صفة لله وحده لا يشاركه فيها غيره . وبذلك يكون المعنى أن هؤلاء المتقين يشملون برحمة الله .

---

(١) سورة الأعلى / الآية ٢ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٣٨ .

(٣) البقرة / الآية ١١٥ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٤ ص ٢٣ .

(٥) سورة مريم / الآية ٨٥ .

(٦) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك رد على المشبهة ، الذين استندوا إلى الآية لإثبات أن انتهاء حركة المتقين يكون عند الرحمن وأورد رد أهل التوحيد الذين يقولون : إنها تعني إلى محل كرامة الرحمن (١) .

ومن الواضح أن المشبهة يرون اللغة قوالب جامدة ؛ فيرون الحشر إلى الرحمن انتهاء حركة عنده . وأظن المعنى الذي ذهبت إليه في الرد على الملحدين كافيا لإيضاح عدم دقة ما ذهبت إليه المشبهة (٢) .

(د) كما رد على المشبهة الذين استندوا إلى قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٣) وغيرها من آيات الاستواء في التدليل على أن معبودهم جالس على العرش وقد بين الرازي أن الاستواء يؤول بالاستيلاء والقدرة (٤) كما أشرت سابقا .

٣ ـ *ملامح التأثير على كلام الله (خلق القرآن وقدمه) :*

(أ) في أثناء تفسيره سورة الكهف وفي سياق تفسيره قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ (٥) ؛ أورد قول مخالفي الأشاعرة : إن هذه الآية تدل على أن كلام الله ليس واحدا . وأورد قول الجبائي : إنها تدل على أن كلمات الله تعالى قد تنفد في الجملة ، وما ثبت عدمه ، امتنع قدمه ؛ وبذلك ذهبوا إلى أن كلام الله محدث وليس قديما .

وقد بين الفخر الرازي أن الأشاعرة اعتبروا " كلمات الله " متعلقات علمه تعالى ؛ وبالتالي فكلام الله واحد . وقد جاء هذا التأكيد من خلال سعة اللغة وكون الكلمات يمكن أن تحمل على متعلقات العلم مجازا . فتصور الرازي للغة هو الذي جعله يذهب هذا المذهب (٦) .

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ٢٥٣ .

(٢) انظر : ص ١١١ .

(٣) طه / الآية ٥ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٥ .

(٥) الكهرف / الآية ١٠٩ .

(٦) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ب) كما أورد احتجاج المعتزلة على حدوث القرآن بقوله تالى : ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾ (١) ؛ حيث كانت حجتهم أن القرآن ذكر ، والذكر محدث ؛ فالقرآن محدث (٢) .

كما أورد حجج المعتزلة في كون القرآن مخلوقا محدثا ؛ من خلال قوله تعالى : ﴿ **قرآنا عربيا** ﴾ (٣) حيث كانت حجتهم أن القرآن إنما صار عربيا لأن الألفاظ صارت دالة على المعاني بوضع العرب ، والوضع محدث ، وما كان بسبب وضع العرب واصطلاحهم ، فهو محدث . وكذلك كون القرآن من القراءة والقراءة مصدر ، والمصدر هو المفعول المطلق فهو فعل ومفعول . وقد أجاب الرازي عن ذلك كله من خلال تصوره للغة القائم على تقسيم الكلام إلى الكلام النفسي والكلام الفعلي حيث أوضح أن المحدث هو الحروف والأصوات (٤) .

(جـ) أورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ (٥) أن المعتزلة استدلت بهذه الآية على أن القرآن مخلوق من وجوه أحدها : أن كلام الله تعالى لو كان قديما لكان الناسخ والمنسوخ قديمين ، لكن ذلك محال ؛ لأن الناسخ يجب أن يكون متأخرا عن المنسوخ . وثانيها : أن الآية دلت على أن بعض القرآن خير من بعض ، وثالثها : قوله تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ (٦) .

وقد أجاب الأشاعرة عن ذلك بأن الناسخ والمنسوخ من عوارض الألفاظ والعبارات واللغات ، وهي حادثة ؛ لكن المعنى الحقيقي الذي هو مدلول العبارات والاصطلاحات ليس محدثا (٧) .

---

(١) الأنبياء / الآية ٢ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٤٠ .

(٣) سورة يوسف / الآية ٢ ، طه / الآية ١١٣ ، الزمر /٢٨ ، فصلت /٣ ، الشورى /٧ ، الزخرف /٣ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٢٧٦ .

وانظر : القاضي عبد الجبار الهمذاني : متشابه القرآن / القسم الثاني ص ٤٩٤ .

(٥) سورة البقرة / الآية ١٠٦ .

(٦) سورة البقرة / الآية ١٠٦ .

(٧) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ٢٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاللغة ومعنى الناسخ والمنسوخ ضمن تصوره العام للغة ، هو الذي جعله يؤكد رأي الأشاعرة ؛ ذلك أن النسخ عنده يكون في اللفظ لا في الدلالة القائمة بذات الله .

(د) أورد في قوله تعالى : ﴿ **وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (١) أن الأشاعرة استدلوا بهذه الآية على قدم كلام الله (٢) لأن الآية تدل على أنه تعالى ، إذا أراد إحداث شيء قال له : كن فيكون . فلو كان قوله : كن محدثا لافتقر حدوثه إلى قول آخر ؛ وهكذا .. وهذا الأمر غير ممكن ، ولذلك ؛ فإن قول الله تعالى (كلامه) ، قديم .

كما أورد رأي المعتزلة الذين استدلوا على ذلك باللغة ، لوجود (إذا) الدالة على الاستقبال ، ولأن حرف (الفاء) للتعقيب . والفاء في قوله (فإنما يقول له) يدل على تأخر القول عن قضاء الله والمتأخر عن غيره محدث . وكذلك ، فالفاء في قوله (فيكون) تدل على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل ؛ فيكون قول الله تعالى متقدما على حدوث الحادث ، تقدما بلا فصل ؛ والمتقدم على المحدث تقدما بلا فصل محدث فقول الله تعالى (كلامه) محدث . وقد ضعف الرازي آراء الفريقين ؛ لأن كون قوله (كن) قديما باطل وكونه محدثا ينحصر في كون كلام الله هو المركب من الحروف والأصوات (٣) .

(هـ) كان قد مر بنا في الفصل الأول أن الرازي اعتبر الكلام اللساني لا معنى له إلا الاصطلاح من الناس على جعل الأصوات المقطعة والحروف المركبة معرفات لما في الضمائر ؛ وأنه لو قدرنا أنهم تواضعوا على جعل أشياء غيرها معرفات لما في الضمائر لكانت تلك الأشياء كلاما أيضا ؛ ولذلك استنتج أن الكلام ليس صفة حقيقية مثل العلم والقدرة والإرادة ؛ بل أمرا وضعيا اصطلاحيا ، فالكلام : فعل مخصوص يفعله الحي القادر ليعرف غيره ما في ضميره من الإرادات والاعتقادات (فاعل لها فقط) . أما الكلام القائم بالنفس فهو صفة حقيقية كالعلم والقدرة والإرادة (٤) .

---

(١) سورة البقرة / الآية ١١٧

سورة آل عمران / الآية ٤٧ (إذا قضى أمرا ... الخ) .

(٢) انظر : الباقلاني ؛ أبو بكر محمد بن الطيب / التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج ، عني بتصحيحه ونشره الأب ريتشر يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية - بيروت ١٩٥٧ م ، ص ٢٤٠ .

(٣) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ٢١٩ .

وانظر : القاضي عبد الجبار / متشابه القرآن . القسم الثاني ص ١٠٦ .

(٤) انظر : الفخر الرازي - التفسير الكبير ج ١ ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبناء على ذلك ناقش ما طرحه المعتزلة الذين اعتبروا صيغة أفعل لفظة موضوعة لإرادة الفعل ، وصيغة الخبر لفظة موضوعة لبيان أن ذلك القائل يعتقد كذا وكذا .

قال الرازي : " وقال أصحابنا : الطلب النفساني مغاير للإرادة ، والحكم الذهني مغاير للاعتقاد " (١) .

وقد استدل الرازي على ذلك الرأي بأن الله يأمر الكافر بالإيمان في حين أنه لم يرد منه ذلك ؛ لأنه لو أراده لوقع ، وهو يريد كفر الكافر ويعلم بكفره . والدليل على أن الحكم الذهني مغاير للاعتقاد والعلم قول القائل : العالم قديم ؛ وهذا القول لا يتعدى كونه حكما بالقدم لا يوجب الاعتقاد بالقدم (٢) .

وحول قدم كلام الله اعتبر إطلاق لفظ كلام الله على الحروف والأصوات على سبيل المجاز حيث إنها تدل على الصفة القائمة بذات الله ؛ أي الكلام النفساني ، فإذا قلنا : كلام الله قديم : لم نعن به إلا تلك الصفة القديمة التي هي مدلول هذه الألفاظ والعبارات ؛ وهذا خلاف ما زعمته الحشوية من أن هذه الأصوات التي نسمعها من الإنسان هي عين كلام الله تعالى .

وقد بيّن الرازي أن هذا باطل لأننا نعلم بالبديهة أن هذه الحروف والأصوات التي نسمعها من هذا الإنسان صفة قائمة بلسانه وأصواته . فلو قلنا : إنها عين كلام الله تعالى ÷ لزمنا القول بأن الصفة الواحدة بعينها قائمة بذات الله تعالى وحالة في بدن هذا الإنسان . وهذا معلوم الفساد بالضرورة وقد نعى الرازي على أولئك الذين يقولون بذلك ؛ أنهم يقولون عين ما يقوله النصارى عن اللاهوت والناسوت (٣) .

كما ناقش قول الكرّامية : الكلام اسم للقدرة على القول بدليل أن القادر على النطق يقال : إنه متكلم ، وإن لم يكن في الحال مشتغلا بالقول . والكلام ضد الخرس والخرس هو العجز عن القول ؛ فوجب أن يكون الكلام هو القدرة على القول . وهذا يعني أنهم يقولون :

---

(١) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج١ ص ٢٦ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ج ١ ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن كلام الله تعالى قديم بمعنى أن قدرته على القول قديمة ؛ أما القول فإنه حادث ؛ وقد أبطله الرازي كما أسلفت (١) .

(و) كذلك احتج الفخر الرازي بالآيات التي جاء فيها الإخبار بصيغة الماضي على كون المخبر عنه متقدما على ذلك الإخبار ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ (٢) وما شابهها ، وبهذا وافق المعتزلة الذين احتجوا بكل ما أخبر الله عنه بصيغة الماضي على أن كلام الله محدث سواء أكان الكلام هو الحروف والأصوات أم كان الكلام القائم بذات الله . وكانت حجة المعتزلة أن الخبر لا يكون صدقا إلا إذا كان مسبوقا بالمخبر عنه ؛ والقديم يستحيل أن يكون مسبوقا بغيره ، ولذلك فهذا الخبر يستحيل أن يكون قديما فيجب أن يكون محدثا (٣) .

وواضح أن التصور اللغوي من النظم القائم على التقديم والتأخير هو الذي جعل الفخر الرازي يذهب إلى ما ذهب إليه من رأي المعتزلة ؛ لأن الماضي يخبر عن شيء تم الحديث عنه .

٤ - *بعض معالم تأثير اللغة في مفهومه لأفعال العباد (الجبر والاختيار والكسب) :*

(أ) أورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ (٤) أن الأشاعرة احتجوا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ؛ لأن هذه الآية دالة على أن عدالة هذه الأمة وخيريتها جاءت (بجعل) الله وخلقه ، وهذا يتطابق ومذهب الأشاعرة ، كما أورد رأي المعتزلة في أن هذا الجعل هو من ألطاف الله التي علم الله تعالى أنه متى فعلها لهذه الأمة اختاروا عندها الصواب في القول والعمل (٥).

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ١ ص ٣١ .

(٢) البقرة / الآية ٦ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ٤٣ .

(٤) البقرة / ١٤٣ .

(٥) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٤ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ،
وانظر في ألطاف الله ؛ القاضي عبد الجبار - متشابه القرآن ، القسم الثاني ص ٧١٩ - ٧٣٥ .
وكذلك : المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق محمد مصطفى حلمي وآخرون ، باشراف طه حسين - القاهرة - الدار المصرية للتأليف والترجمة ج ١٣ ص ٩٥ - ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاللغة هي مستند الفخر الرازي فيما ذهب إليه من تأييد رأي الأشاعرة ، لأن الله هو الذي " جعل " الأمة على النحو الذي طرحته الآية ؛ فالأفعال هي أيضا " جعلها " الله ، أي خلقها ؛ فالأفعال مخلوقة ، وليس " الجعل " هو فعل الألطاف كما رأت المعتزلة .

(ب) ذكر أن أهل السنة احتجوا بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ (١) وكذلك الآيات المشابهة ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ (٢) ، ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدا** ﴾ إلى ﴿ **سأرهقه صعودا** ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ (٤) احتجوا بهذه الآيات على تكليف ما لا يطاق . وبعد أن ناقش آراء المعتزلة في عدم تكليف ما لا يطاق ، اعتبر هذه الآية والآيات التي ذكرتها سابقا هي الهادمة لأصول الاعتزال . كما أشار الرازي إلى أن آراء المعتزلة فتحت باب ضلالات واسعة جاء بها منكرو التكاليف والنبوات الذين استنتجوا نفي التكاليف وبطلان القول بالنبوات لتناقض آراء الجبرية والمعتزلة في تكليف ما لا يطاق (٥) .

وأظن هذا الأمر مبالغا فيه إذ اعتمد منكرو التكاليف على التناقض الظاهري بين رأي الجبرية والمعتزلة في تكليف ما لا يطاق ولم يكن موقفهم نتيجة مواقف المعتزلة . وعلى أية حال فإن موقف الأشاعرة - الذي يصل بين الجبر والاختيار بنظرية الكسب - موقف يتسم بنظرة شمولية ترى المسألة من جميع جوانبها ولا تراها من زاوية أحادية الجانب كما كان كل من الجبرية والمعتزلة يفعل. وقد استند الأشاعرة في موقفهم إلى سعة اللغة وقابليتها للتأويل وإلى الثنائية التي اتسم بها موقفهم على وجه العموم .

(جـ) أورد الفخر الرازي قول أهل السنة الذي اختاره وأيده ؛ وهو أن العبد لا يستحق على الطاعة ثوابا ولا على المعصية عقابا استحقاقا عقليا (٦) وفي هذا يخالف هو وأهل

---

(١) البقرة / ٦ .

(٢) يس / ٧ .

(٣) المدثر / ١٧ .

(٤) المسد / ١ .

(٥) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج٢ ، ص ٤٨، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

وانظر : إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك : الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، تحقيق أسعد تميم - الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥/ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ص ٢٠٣ - ٢١٩ .

(٦) انظر : أبو بكر الباقلاني / التمهيد ص ٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السنة رأي المعتزلة الذين كانوا يرون أن الطاعة توجب الثواب وذلك احتجاجًا بما بشرهم الله به من جنات ، لكن الفخر الرازي حمل الآيات على استحقاق الوقوع مجازا ، لا على الوقوع بالفعل ؛ لأنه يجوز التعبير عن استحقاق الوقوع مجازًا بالوقوع (١) ، وبهذا نفى الوجوب على الله من خلال ما تحمله اللغة من سعة في ضوء تصوره للعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

كما رد على المعتزلة الذين قالوا بوجوب قبول التوبة على الله عقلا مستندا إلى ورود قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **يغفر لكم** ﴾ (٢) في معرض الامتنان ؛ مبينا أنه لو كان قبول التوبة واجبًا ، لكان الأمر أداءً للواجب ، ولا يقتضي الامتنان (٣) . فالسياق اللغوي ضمن تصور الفخر الرازي للغة هو الذي جعله يصل إلى ما وصل إليه .

وفي أثناء تفسيره سورة البقرة أورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وإنا ، إن شاء الله لمهتدون** ﴾ (٤) أن الأشاعرة يرون أن الله قد يأمر بما لا يريد وهذا مختلف ورأي المعتزلة الذين يرون أن الله تعالى لمّا أمرهم فقد أراد اهتداءهم . وعند الأشاعرة أن الحوادث كلها مرادة لله تعالى . وقد احتج المعتزل بقوله : إن شاء الله بأن مشيئة الله محدثة وذلك لدخول (إن) على المشيئة وكذلك لأن الله علق حصول الاهتداء على حصول مشيئة الاهتداء . وبما أن حصول الاهتداء ليس أزليا ، فمشيئة الاهتداء ليست أزلية (٥) .

(د) أورد حجة المعتزلة في الوعيد المؤبد لأصحاب الكبائر التي تقوم على أن " من " وردت بصيغة العموم في قوله تعالى : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها** ﴾ (٦) ، لأن (من) في معرض الشرط تفيد العموم وأن الله تعالى قال : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ (٧) .

---

(١) انظر : الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) البقرة / الآية ٥٨ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ٧٦ .

(٤) البقرة / الآية ٧٠ .

(٥) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج٣ ص ١٢٩ .

(٦) النساء / الآية ١٤ .

(٧) النساء / الآية ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اقتضى السياق الذي جاءت فيه الآية أن الوعيد متعلق بالمعصية في هذه الحدود فقط دون غيرها من الحدود وليس العصيان المطلق .

وكما أورد احتجاج المعتزلة بأن الشفاعة لا تكون لأهل الكبائر من خلال الآية الكريمة ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ (١) وذلك لأن أصحاب الكبائر لا يقال فيهم : إن الله يرتضيهم .

وقد رد الفخر الرازي على المعتزلة مستندا إلى ابن عباس والضحاك اللذيْن ذهبا إلى أن معنى (من ارتضى) : من قال :لا إله إلا الله . وقد اعتبرها الفخر الرازي من أقوى الدلائل على إثبات الشفاعة لأهل الكبائر ـ كما هو رأي الأشاعرة ــ لأن من قال : لا إله إلا الله فقد ارتضاه الله (٢) .

(هـ) أورد في تفسير سورة الكهف وفي أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (٣) احتجاج المعتزلة بهذه الآية على أن الأمر في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره . لكن الفخر الرازي رد قول المعتزلة واعتبر الآية من أقوى الدلائل على ما ذهب إليه الأشاعرة ؛ وذلك لأن الآية تصرح بأن الإيمان والكفر مرهونان بحصول مشيئة الإيمان ومشيئة الكفر وهو ما يعرف عند الأشاعـــــــرة ب (الكسب) فالفعل رباني والكسب إنساني . واللغة هي التي أسعفت الرازي في الذهاب إلى ما ذهب إليه من تأكيد لرأي الأشاعرة (٤) .

وفي سورة الكهف أيضا وفي قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله** ﴾ (٥) ناقش رأي المعتزلة حول إرادة الله الإيمان والطاعة من العبد ، وإرادة العبد الكفر والمعصية لنفسه ، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله مغلوبة برأيهم . وقد رد الفخر الرازي عليهم بهذه الآية نفسها التي تؤكد أن إرادة الإنسان مرهونة بإرادة الله وأنه تعالى يريد الكفر للكافر ويريد الإيمان للمؤمن ، فإرادة الله غالبة وإرادة العبد مغلوبة (٦) .

---

(١) الأنبياء /٢٨ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٦٠ .

وانظر : إمام الحرمين ؛ ابو المعالي الجويني / الإرشاد ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) الكهف / الآية ٢٩ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ١١٠ .

(٥) الكهف / الآية ٢٤ .

(٦) انظر / الرازي / التفسير الكبير ج ٢١ ص ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(و) وفي سياق تفسيره لمعنى الفسق أورد قول الفراء : " الفاسق أصله من قولهم : فسقت الرطبة من قشرها ، أي خرجت ؛ فكأن الفاسق هو الخارج عن الطاعة . وتسمّى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة (١) .

وقد استند إلى هذا المعنى اللغوي في اعتبار الفاسق مؤمنا وليس كافرا كما يرى الأشاعرة . وهو بذلك يرد على الخوارج الذين اعتبروه كافرا . وكذلك على المعتزلة الذين اعتبروه ، لا مؤمنا ولا كافرا ؛ لأن الخروج عن الطاعة غير الكفر وليس منزلة بين المنزلتين ؛ وإنما هو معصية تقتضي العقوبة ، وليس كفرا يحد بحد الارتداد وليس هو حالة بين الإيمان والكفر - وهي حالة وهمية - لأنه ليس في الاسلام إلا الإيمان أو الكفر .

كما بيّن في أثناء تفسيره سورة الإسراء وفي تفسيره قوله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا** ﴾ (٢) أن المراد منه الأمر بالفعل ، ولأن لفظ الآية لا يدل على الشيء الذي يأمرهم به ولذلك قال كثيرون : إنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات وهم الذين يخالفون ذلك الأمر ويفسقون .

ثم أورد قول الزمخشري في الكشاف : إن ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق ، ولكن هذا مجاز معناه أنهم تمردوا وطغَوْا وبغَوْا بعد أن فتح الله عليهم أبواب الخيرات (٣) .

وقد استدل الزمخشري على ذلك بمعنى كلمة الفسق في اللغة وهو الإتيان بغير المأمور به . ولذلك فإن المأمور به لا يمكن أن يكون الفسق . وقد رفض الرازي هذا القول . واعتبر الآية حجة للأشاعرة على صحة مذهبهم حيث إن ظاهر الأية يدل على أنه تعالى أراد ايصال الضرر إليهم ابتداء ولكنه أراد إهلاكهم عن هذه الطريق حيث خص المترفين بذلك لأنهم يفسقون وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم الفسق ، ولذلك حق القول بالتعذيب والكفر . ومتى حق القول امتنع صدور الإيمان ، لكن الرازي مال في نهاية المطاف إلى رأي القفّال الذي يوافق رأي المعتزلة ، وهو : أن الله تعالى لا يعذب أحدا بما يعلمه منه ما لم يعمل به ؛ فالله لا يعاجل الناس بالهلاك بسبب ظهور المعاصي ، بل يأمر المترفين بالرجوع عن المعاصي ولكنهم يعصون الله ما أمرهم .

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) الاسراء / الآية ١٦ .

(٣) انظر : الزمخشري / الكشاف ج ٢ ص ٤٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما ناقش القراءة التي ترى أن الفعل هو " أمّرنا " وليس (أمَرنا) تجنبا للوقوع في شبهة الأمر بالفسق (١) .

(ز) أوضح رأي الأشاعرة في أن الإيمان غير العمل استنادا إلى أن الله سبحانه وتعالى عطف الإيمان على العمل (٢) المعطوف ينبغي أن يكون غير المعطوف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا** ﴾ (٣) .

(ح) كما بين حجة المعتزلة في قولهم عن الآية الكريمة : ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها ؛ لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾ (٤) : إنها تفيد الاختيار والعمل والجزاء (٥) . وكذلك كان نقاشه للاختيار والجبر في الآيات الكريمة ﴿ **كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ (المدثر /٣١) ، ﴿ **لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر** ﴾ (المدثر /٣٧) ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ (المدثر / ٣٨) ﴿ **فمن شاء ذكره** ﴾ (المدثر / ٥٥) ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ (المدثر /٥٦) . كما ناقش حجة المعتزلة على الاختيار والمشيئة من خلال فهمهم قوله تعالى : ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا** ﴾ (٦) . حيث أكد رأي الأشاعرة استنادا إلى ابن عباس الذي كان يرى أن المراد بالآية : فمن شاء الله به خيرا هداه حتى يتخذ إلى ربه مآبا (٧) .

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٠ ص ١٧٥ - ١٧٨ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ج ٢١ ص ٢٣٦ .

(٣) سورة مريم / الآيتان ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) طه / الآية ١٥ .

(٥) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٢٢ .

(٦) النبأ / ٣٩ .

(٧) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرازي هنا استند إلى الحذف من خلال النظم القائم على تصوره للغة . وذلك من خلال رأي ابن عباس ؛ فتصوره للغة هو الذي جعله يرجح رأي الأشاعرة . وفي سياق تفسيره قوله تعالى : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ (١)طرح رأي المعتزلة بأن هذا دليل الاختيار ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ (٢) ثم رد عليهم بأن الله ألهم المؤمن المتقي تقواه وألهم الكافر فجوره .

والإلهام كما قال الواحدي : غير التبيين ؛ فالإلهام هو أن يوقع الله في قلب العبد شيئا ، وإذا أوقعه في قلبه فقد ألزمه إياه . وأصل الإلهام من قولهم : لهم الشيء والتهمه إذا ابتلعه فاستخدم في الإلهام الذي هو كالإبلاع ، وقد أضاف الواحدي في قوله﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ (٣) أن المروي عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي أن المعنى : قد أفلحت نفس وسعدت نفس زكاها الله وأصلحها وطهرها . فالمعنى : وفقها للطاعة (٤) .

وأظن الذي ذهب إليه الواحدي فيما روى عن سعيد بن جبير وغيره لا يستقيم لأن النص هو : قد أفلح الذي زكى نفسه والفاعل (هو) يعود على من . ولا وجه لقوله زكاها الله ، لأن هذا الوجه لا يستقيم مع (من) ولا مع أفلح .

(ط) أورد قوله تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾ (٥) وأوضح أن الآية تدل على أن العبد مكتسب ثم بيّن الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة في الكسب . فأهل السنة كانوا يرون أن الكسب لا يعني دخول شيء من الأعراض بقدرته من العدم إلى الوجود . وكان ثمة اختلاف بينهم في ذلك ؛ فأبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) كان يرى القدرة والمقدور يحصلان بخلق الله ، وأبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) كان يرى أن ذات الفعل بقدرة الله والفعل نفسه طاعة أو معصية صفة خاصة بالقدرة الحادثة . وأبو إسحق الاسفراييني كان يرى القدرة الحادثة متعلقة بالقدرة القديمة أي أن فعل العبد وقع بإعانة الله.

---

(١) الشمس / الآية ٨ .

(٢) البلد / ١٠ .

(٣) الشمس / الآية ٩ .

(٤) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٩٣ .

(٥) البقرة / الآية ١٣٤ و ١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومذهب إمام الحرمين ؛ أبي المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ) أن الله هو الخالق للكل فهو الذي وضع الأسباب المؤدية إلى أفعال العباد والعبد هو المكتسب وهذا مخالف لرأي المعتزلة في أن العبد قادر على الفعل والترك متمكن منهما ؛ إن شاء فعل وإن شاء ترك ؛ وهذا الفعل هو الكسب (١) .

(ي) في سياق تفسيره قوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ (٢) بيّن أن هذه الآية كانت من حجج المعتزلة على أن فعل العبد غير مخلوق لله ؛ لأنه لو كان مخلوقا في الناس على سبيل الاضطرار فإنه لا يجوز أن يسألوا عن ذلك ، كما بيّن أنهم استدلوا بقوله تعالى: ﴿ **وأنتم ظالمون** ﴾ (٣) على الأمر السابق نفسه لأن الله ذمهم على هذه المعاصي ؛ ولأنها لو كانت بإرادة الله لكانوا مطيعين .

كما أوضح استدلال المعتزلة على أن الله أراد الاهتداء من الكل ولم يرد الكفر من الكافر لأنه إذا كان الله يخلق الاهتداء فيمن يهتدي والضلال فيمن يضل ؛ فما الفائدة في أن ينزل الكتاب والفرقان ، ويقول : ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ (٤) .

وكذلك ففي قوله تعالى : ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ (٥) العهد عند المعتزلة هو : ما دل العقل عليه من وجوب أن يوصل الله الثواب إلى المطيع ولأنه ينبغي الوفاء به وصف بالعهد (٦) .

وكان رد الرازي بتأكيد ما يراه الأشاعرة من أنه لا يجب على الله شيء (٧) وأن هذا من مقتضيات استخدام ما تعارف الناس عليه في مواضعاتهم اللغوية ، فالنص القرآني عند الفخر الرازي يأتي متوافقا وما اصطلح الناس عليه في اللغة وهو ينطلق من تصوره للغة ودورها .

---

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٤ ص ٨٦ ، ٨٧ .

وانظر : الأشعري / الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٣ ،

وانظر : إمام الحرمين أبو المعالي الجوني / كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥ .

(٢) البقرة / الآية ٤٤ .

(٣) البقرة / ٥١ .

(٤) البقرة / الآية ٥٣ .

(٥) البقرة / الآية ٤٠ .

(٦) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣ ص ٥٠ ، ٨١ ، ٨٣ .

(٧) انظر : المرجع نفسه ج ٣ ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ك) وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾(١) عرض رأي القاضي عبد الجبار (٢) في أن هذه الآية أقوى دليل على أن الله لا يفعل القبيح ولا يخلق أفعال العباد وما فيها من السفة والظلم لأنه لو كان كذلك لكان كل سفه وكل أمر بسفه وكل ترغيب فيه من الله ، ومن كان كذلك فهو أسفه السفهاء وأنه لا حكمة ولا أمر بالحكمة ولا ترغيب في الحكمة إلا من الله ، ومن كان كذلك فهو أحكم الحكماء .

وبالتالي لا يحكم بأنه أحكم الحكماء أو أسفه السفهاء . لذلك فالله ليس خالقا لأفعال العباد . وقد عالج الإمام الرازي الأمر معالجة لغوية من خلال مدلول كلمة السفيه وأجاب على ما ذهبت إليه المعتزلة بأن السفيه من قامت السفاهة به ، لا من خلقها (٣) .

(ل) كما أورد في تفسيره قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق ﴾ (٤) رأي الأشاعرة في أنه لا خالق للفعل إلا الله ، لأنه في هذه الآية المحكمة جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، ومثل هذه الصفة لا تقع الشراكة فيها (٥) .

وكان الفخر الرازي قد أشار إلى وقوع لفظ خلق مطلقا غير مقيد ثم خصص بخلق الإنسان . وهكذا فتصوره للغة ودلالة الألفاظ بين الإطلاق والتقييد هو الذي استند إليه فيما ذهب إليه من أنه لا خالق للفعل إلا الله .

٣ ـ *من تأثير اللغة على مفهومه لخلق العالم (الكون) :*

نفي الإمام فخر الدين الرازي أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ **وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (٦) أنه حين يقول : (كن) يتكون الشيء . وأن لفظ (كن) لا يجوز أن يكون قديما لأن كلمة (كن) لفظة مركبة من الكاف والنون ، والكاف متقدمة على النون ،

---

(١) التين / الآية ٨ .

(٢) انظر : القاضي عبد الجبار / متشابه القرآن ـ القسم الثاني ص ٦٩٥ .

(٣) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٢ .

(٤) العلق / ١ ، ٢ .

(٥) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٤ ، ١٥

وانظر : الأشعري / الإبانة ص ٢٣ .

وانظر : إمام الحرمين ؛ أبو المعالي الجويني / الإرشاد ص ١٧٣ .

(٦) البقرة / الآية ١١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنون لكونها مسبوقة بالكاف لا بد أن تكون محدثة . والكاف لكونها متقدمة على المحدث بزمان واحد وجب أن تكون محدثة . فكلمة (كن) محدثة . كذلك فإن كلمة (إذا) لا تدخل إلا على سبيل الاستقبال ، فلا بد أن يكون ذلك القضاء (الحدث) محدثا . ثم إن (كن) يترتب على القضاء بفاء التعقيب (فإنما) ، والمتأخر عن المحدث محدث ولذلك استحال أن يكون (كن) قديما . ثم رتب الخلق على (كن) بفاء التعقيب (فيكون)، فقوله (كن) مقدم على (فيكون) المخلوق بزمان واحد فلا بد أن يكون محدثا ، وقوله (كن) لا يجوز أن يكون قديما ولا يجوز أن يكون محدثا لأنه : " لو افتقر كل محدث إلى قوله كن وقوله (كن) أيضا محدث فيلزم افتقار (كن) إلى (كن) آخر " (١) وهكذا ... وهذا دليل على أنه لا يجوز توقف إحداث الحوادث على قوله (كن) . وهكذا فتصوره للغة من خلال التقديم والتأخير في الحروف والكلمات والترتيب والتعقيب ووجود إذا التي تدل على الاستقبال والفاء ، هي التي جعلته يحدد موقفه من خلق الكون .

٤ ـ *من تأثير اللغة على مفهومه للإمامة (الخلافة) :*

ذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني جاعلك للناس إماما قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ (٢) أن الذين قالوا : إن الإمام لا يصير إماما إلا بالنص كالشيعة قد تمسكوا بهذه الآية ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ (٣) ولكنه رأى أن هذا الرأي ضعيف لأن المراد بالإمامة والخلافة في هاتين الآيتين هو النبوة . ثم ناقش المسألة مفترضا أن يكون المعنى مطلق الإمامة وفي هذه الحالة فإن هذه الآية تدل على النص ولكنها لا تدل على جواز الإمامة من غير نص أو عدم جوازها .

وقد أشار إلى أن قوله تعالى : (إني جاعلك للناس إماما) يدل على أن النبي معصوم ؛ لأن الإمام هو من يؤتم به ، ويقتدى . وبذلك لو صدرت المعصية منه لوجب

---

(١) التفسير الكبير ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) البقرة / الآية ١٢٤ .

(٣) البقرة / الآية ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اتباعه . وحيث إن المعصية توجب المنع من الفعل ، والواجب يوجب المنع من الترك ؛ فاجتماع المعصية ووجوب الاتباع يستحيلان (١) .

كما وضع الرازي مسألة نيل الظالمين العهد بالإمامة بصورتها التشريعية العامة حين أورد رأي جمهور الفقهاء والمتلكمين في أن الفاسق ـ حال فسقه ـ لا يجوز عقد الإمامة له ، وأنهم اختلفوا في الفسق الطارئ ، أيبطل الإمامة أم لا ؟ وقد احتج الجمهور بهذه الآية على أن الفاسق لا يصلح أن تعقد له الإمامة ؛ وأن الآية تدل على عصمة الأنبياء (٢) .

وهكذا استند الإمام فخر الدين الرازي إلى اللغة في مفهومه للإمامة من خلال دلالة لفظ الإمام ، كما حمل الظلم على الفسق والمعصية ، لا على الشرك الذي أكد القرآن الكريم أنه ظلم عظيم ، فالشرك ظلم ، لكن الظلم ليس شركا ، وسعة اللغة ضمن تصور الرازي لها هي التي حملته على النظر إلى الأمر من الوجه الذي ذكرت .

ومن الشواهد القرآنية السابقة يتبين لنا أن تأثير تصور الإمام فخر الدين الرازي اللغة على مفاهيمه الكلامية كان واسعا .

****

(١) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٤ ص ٤٤ .

(٢) انظر : الرازي / التفسير الكبير ج ٤ ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

بعد أن تم استجلاء المنطلقات التي انطلق منها الإمام فخر الدين الرازي ، والجوانب النظرية لمعالم تصوره للغة ، ومعالم تأثير تصوره للغة على مفاهيمه الكلامية ، يمكن أن ألخص النتائج التي توصل إليها هذا البحث بالنقاط التالية :

١ - تبين أن الإمام فخر الدين الرازي قد احتفى باللغة - شأنه شأن الأشاعرة - ، وجعل لها مكانة سامية في فهم النص الشرعي ، قرآنا وحديثا .

٢ - وأن مقياس الصحة والخطأ عنده في فهم النص الشرعي ، هو جواز ذلك أو امتناعه حسب مقتضيات اللغة ، إذ كان يصف الشيء الذي يراه صحيحا ، بأنه مستقيم على قانون اللغة .

٣ - وأن اللغة ومقتضياتها عنده تحد بحدود ما تواضع عليه أهل اللغة وتعارفوا .

٤ - وأنه كان يرى - ما كان يراه غيره من الأشاعرة - من أن اللغة العربية تأتي على التوسع ، ولكنه لم يكن يتوسع فيها توسع المعتزلة ؛ شأنه في ذلك شأن الأشاعرة أيضا .

٥ - وأنه كان يرى القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب وحسب طريقتهم في الفهم وبناء على نظرتهم إلى اللغة ومفهومهم لها ؛ وأنه ليس فيه ما لا يمكن فهمه ؛ لا بالحقيقة ، ولا بالمجاز .

٦ - وأنه كان يرى اللغة حية متحركة ، ولم يكن يراها جامدة ساكنة وبذلك يلتقى وبعض علماء اللغة في العصر الحديث .

٧ - وأنه كان يرى اللغة ذات بعد اجتماعي ، فهي للتبليغ وللتوصيل وللتأثير أيضا ؛ وبذلك يلتقي وبعض علماء اللغة في العصر الراهن .

٨ - وأنه كان يرى الدلالة متطورة تتضافر عليها الدلالة الأصلية والعرفية والسياقية والمقامية ، وأنها تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والظروف والأحوال ، وبذلك يلتقي وبعض علماء اللغة في العصر الحاضر .

٩ - وتبين أنه انطلق في تصوره للغة من مفهوم يقترب من النظرية القائلة بالتلازم بين اللغة والفكر وأن العلاقة بينهما تكاملية تبادلية وبذلك يلتقي وبعض علماء اللغة في العصر الحديث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠- وأنه قد كان له تصور للغة يشكل معالم نظرية لغوية تعتبر امتدادا وتوسيعا وتعميقا لنظرية الإمام عبد القاهر الجرجاني اللغوية ؛ تتضافر على تشكيلها الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ؛ حيث كان يرى العلاقة بين الدّال ومدلوله علاقة اعتباطية وليست علاقة ذاتية ، إلا في حالات معينة يلتقي فيها الصوت والمدلول .
كما كان يرى ما يراه ابن جني في الاشتقاق الأكبر ، ولكنه لم يكن يرى أن هذا الأمر عام وشامل بل مقتصر على بعض الحالات ، دون بعضها الآخر .
كما أكد على تقسيم الدلالة إلى حقيقية ومجازية ؛ ولكنه لم يكن يتوسع في المجاز على غير وجه ، بل كان يراه ضرورة يقتضيها عدم قدرة الحقيقة على النهوض بالدلالة ؛ ولذلك كانت الحقيقة عنده هي الأصل والمجاز هو الفرع . كما أثبت وجود الترادف ورفض ما ذهب إليه منكروه .
كما تابع عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم وقام بتنظيمها وتبويبها وتعميقها وتوسيعها ، حتى تجاوزت حدود الجملة اللغوية واتسعت لتشمل الفقرة والنص بل ومجموعة النصوص ، فقد كان ينظر إلى القرآن الكريم ـ مثلا ـ باعتباره نصا واحدا ؛ وقد ثبت هذا من خلال الأدلة التي سقتها من تفسيره للقرآن الكريم . كما أكد على الدلالة السياقية والمقامية وثبت هذا من خلال تفسيره للقرآن الكريم أيضا ، وأنه في الوقت الذي كان فيه متأثرا بمن قبله كان مؤثرا فيمن جاء بعده ، ولهذا كله يلتقي الرازي في معالم نظريته اللغوية وما ذهب إليه بعض علماء اللغة في العصر الحديث .

١١- تبين أنه كان يميل إلى تأويل الآيات المتشابهات ، ولكن تأويله كان في حدود التأويل اللغوي القائم على المجاز في اللغة ، وأنه لم يجنح إلى التأويل الباطني مطلقا ، لأنه كان يرفض تقسيم الدلالة إلى ظاهرة وأخرى باطنة ؛ بل وشدد النكير على من قال : إن لكل ظاهر باطنا .

١٢- وأنه كان لتصوره للغة أثر على مفاهيمه الكلامية ؛ إذ جاءت مفاهيمه الكلامية متأثرة بنظريته في اللغة ، بل صيغت مفاهيمه على نسقها . وبهذا اختلف مع المشبهة والمجسمة من جهة ومع المعطلة من جهة أخرى ، وجاءت أراؤه وسطا بين حدّي التعطيل والإثبات أو ما يسميان التنزيه والتشبيه وهي الحالة التي وصفها ب " الدين القويم والصراط المستقيم " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣- وأنه كان يعتمد العلل العقلية والمنطقية في تحليله للنص اللغوي ، وخصوصا نص القرآن الكريم .

١٤- وأن الإعجاز القرآني عنده كان إعجازا لغويا ؛ لم يأت من اللفظ وحده ولا من المعنى وحده ، ولا من المجازات والاستعارات والكنايات ، ولكن من فصاحة النص القرآني القائمة على النسق الذي عليه جاء القرآ ن الكريم معنى ومبنى ، والمعروف باسم النظم، ولذلك لم يعد هناك فرق في الإعجاز بين الآيات المحكمات والمتشابهات ولا بين آيات العقيدة وآيات التشريع .

١٥- وأنه بما أن القرآن الكريم قد جاء معجزا للجن والإنس في سوره وكذلك في آياته ، وأن التحدي بالقرآن قد جاء موجها إلى العالمين وليس إلى العرب وحدهم ؛ وفي الوقت نفسه فالقرآن نزل بلغة العرب فإن هذا قد يشير إلى ما يشير إليه بعض علماء اللغة في عصرنا الراهن من وجود أساس مشترك تلتقي عليه اللغات جميعها نابع من القدرة الإنسانية الفعّالة على خلق اللغة ، تلك التي فطر الله الناس عليها ، والتي تصوغها الظروف والأحوال وتقلبها القدرة ذات اليمين وذات الشمال .

١٦- تبين أن الفخر الرازي قد انطلق من الثنائية التكاملية التلازمية التبادلية بين الوعي والمادة والروح والجسد والعقل والنقل والمعنى واللفظ والفكر واللغة . وبذلك يلتقي وبعض المفاهيم التي طرحها بعض علماء اللغة في العصر الحديث .

١٧- وأنه كان يربط بين مفاهيم تبدو متناقضة ويجمع بينها جمعا خلاّقا ، كمفاهيمه لذات الله تعالى وصفاته وخلق القرآن الكريم من جهة وقدمه من جهة أخرى ، وخلق أفعال العباد من جهة وحرية الإرادة الإنسانية من جهة أخرى وهو ما عرف بالكسب .

١٨- وأنه كان ينطلق من نظرة شمولية وليست أحادية الجانب .

١٩- وأنه كان ينظر إلى الأمور نظرة واقعية دون إسقاطات ذهنية ، فيعرض وجهات النظر المختلفة ويناقشها ثم يطرح رأيه .

٢٠- وأنه كان يضع كافة الاحتمالات في اعتباره ولا يتمسك باحتمال واحد وخصوصا في المسائل التي يصعب على المرء أن يقطع فيها كالمسائل المتعلقة بالذات الإلهية ، وأنه كان ينطلق من مبدأ التجويز وهو مبدأ أشعري عام . ولذلك فعندما كان يطرح رأيا كان يقول باحتمال غيره أيضا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢١- وأنه كان يجمع جمعا خلاّقا بين العقل والنقل ، ولكنه كان يعتمد النقل أساسا ومنطلقا والعقل تابعا ورديفا ، وبذلك تابع الأشاعرة عموما والإمام الغزالي خصوصا وخالف المعتزلة الذين غالوا في العقل من جهة وبعض الفقهاء الذين غالوا في النقل من جهة أخرى . وأن ما قيل عنه : إنه كان يعتمد العقل ويغلبه على النقل لم يكن دقيقا وإن كان قال به ففي سياق التحوط في صحة النص من جهة وفي صحة دلالته من جهة أخرى .

٢٢- وأنه كان يربط ربطا تكامليا تلازميا بين عالم الغيب وعالم الشهادة ؛ مخالفا بذلك المعتزلة الذين باعدوا بينهما والحنابلة الذين لم يجعلوا لعالم الشهادة دورا بل ركزوا الدور كله في عالم الغيب .

٢٣- وأن الفخر الرازي قد كان إماما في علم الكلام ، وأن كلامه في ذات الله سبحانه وصفاته كان امتدادا متميزا للأشاعرة عموما وللإمام الغزالي خصوصا ، وأن كلامه كان مرتكزا إلى النص الشرعي من قرآن كريم وحديث شريف ؛ باعتبار النص الشرعي هو الأصل وباعتبار أن دور العقل هو خدمة الشرع فقط وليس المجيء بأشياء جديدة خارج نطاق الشرع .

٢٤- وأنه وإن كان يستخدم بعض طرق الفلاسفة ومناهجهم في الاستدلال ؛ إلا أنه كان يرفض نظريتهم في المعرفة ومزاعم المسلمين منهم في التوفيق بين الحكمة والشريعة ، وأن الحكمة عنده لا يجوز أن تكون في غير خدمة الشريعة .

٢٥- وأنه كان يميل ميلا صوفيا ؛ لا يغرقه في متاهاتهم ومجاهلهم ، ولكنه يعزز به النص الشرعي بمحاولة التقرب من ذات الله تعالى - أحيانا - عن طريق الكشف والمجاهدة ؛ كما فعل الإمام الغزالي ، وبذلك كرس إعادة الاعتبار للصوفية بمفهومها هذا .

٢٦- تبين أن الفرق الإسلامية التي استندت إلى اللغة ، قد انطلقت من تصوراتها الخاصة للغة ؛ وبالتالي أثّر تصورها ذاك للغة على مفاهيمها الكلامية ؛ وبذلك تعددت تعدد تنوع ، لا تعدد انقسام وفرقة ؛ وأن ما حدث من فرقة لم يكن له ما يبرره ؛ إذ إن سعة اللغة تستوعب الفرق الإسلامية كلها وليس من داع إلى التنابذ ، وأن التعايش بينها في الإطار العام للإسلام أولى . وأن الاختلاف في وجهات النظر أمر طبيعي وصحّي ولكن في الإطار الإسلامي الإيماني الواحد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٧ - وأن الفِرَق التي لم تستند إلى اللغة ، لا على الحقيقة ولا على المجاز ؛ فأضفت على الذات الإلهية صفات تشبه الصفات البشرية ، وجعلت الله وإرادته كالإنسان وإرادته ، - كما كان حال الكرّامية - قد تنكرت للحقيقة وجانبت الصواب ، وأنه لا سند لها فيما ادعت ؛ إذ لا سند يسعفها من اللغة ؛ لا على الحقيقة ولا على المجاز ، ولا على التضييق ولا على التوسع .

٢٨- وأن الفرق الباطنية التي رأت أن لكل معنى ظاهر معنى باطنا؛ لا سند لها من اللغة - هي أيضا - لا على الحقيقة ولا على المجاز ، وأنها كانت تعتمد التهويم الرمزي ، وبذلك تنكرت للحقيقة وجانبت الصواب هي أيضا . وأن قرب الباطنية والمشبهة وبعدهما عن الحقيقة والصواب مرهونان بمدى قرب الاتجاهين أو بعدهما عن مقتضيات اللغة في نظرهما إلى النص الشرعي قرآنا وحديثا ، أخذا له على الحقيقة أو تأويلا له على المجاز .

* * * * * * * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

﴿ ١ ﴾

١ - القرآن الكريم .

٢ - ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ م.

٣ - الأشعري ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن علي بن أبي بشر الأشعري البصري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

٤ - الأشعري ، الإبانة عن أصول الديانة ج ١ ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتورة فوقية حسين محمود ، دار الكتاب للنشر والتوزيع ، القاهرة .

٥ - الإمام أحمد بن حنبل عبد الله احمد بن حنبل ، السنة ، تحقيق أبي هاجر محمد السعد بن بسيوني زغلول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥ م .

٦ - إخوان الصفا ، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، المجلد الثالث ، طبع دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة ، عني بتصحيحه ونشره الأب رينشر يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٥٧ م .

٨ - ابن تغريبردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغريبـــــردي الأتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ، قـــدم لـه وعلـق عليـــــه محمد حسين شمس الديـــن ، الطبعـــة الأولـــى ، دار الكتـــب العلميـــة ، بيـــروت ، ١٩٩٢م .

٩ - ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ) ، مقدمة في أصول التفسير ، تحقيـــــق الدكتور عدنان زرزور ، الطبعـــة الأولـــى ، دار القـــرآن الكريـــم ، الكويت ، ١٩٧١ م .

١٠ - ابن تيمية ، الإيمان ، خرّج أحاديه محمد ناصر الألباني ، أشرف عليه زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

١١ - ابن تيمية ، الرسائل الكبرى ، دار الفكر ، الجزء الأول .

١٢ - ابن تيمية ، مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ، صححه وعلق عليه مع مقدمة بالإنجليزية عبد الصمد شرف الدين ، نشرة مصححة بالدار القيّمة ببلدة بهيمـــــري (تهانة بمباي) ، مطبعة (ق) بمباي الهند ، ١٩٥٤ م .

١٣ - ابن تيمية ، الفتاوى الكبرى ، تحقيق وتعليق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، المجلد الأول الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤ - الثعالبي ، أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١٥- ابن جني ، أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج ١ ، ج ٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

١٦ - الجويني ، إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك ، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، تحقيق أسعد تميم الطبعة الأولى ، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٥ م .

١٧ - الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، ج ١ ، ج ٥ ، تحقيق فوزي عطوي الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار صعب ١٩٨٢ .

١٨ - ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح .

١٩ - أبو حيان الأندلسي ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ - ٧٥٤ هـ) ، البحر المحيط ،طبعة جديدة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢م .

٢٠ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي .

٢١ - ابن خلّكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج ٤ ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٢ - الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ج ١ ، تحقيق د. عبد الله درويش ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٧ م .

٢٣ - الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين ، أساس التقديس ، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

٢٤ - الرازي ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، تحقيق الشيخ خليل الميس مدير أزهر لبنان ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، حزيران ١٩٧٧ م ، الأجزاء ١-٣٢ نسخة دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٥ - الرازي ، المحصول في علم أصول الفقه ، دراسة وتحقيق الدكتور طه جابر فياض العلواني ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٢ م .

٢٦ - الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق د. ابراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٨٥.
والنسخة الثانية تحقيق ودراسة الدكتور بكري شيخ أمين ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٥ م .

٢٧ - ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القاهرة ، مكتبة صبيح .

٢٨ - الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ رتبه وصححه مصطفى حسين أحمد ، الطبعة الثالثة ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٧ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٩ ـ السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٨ ، عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي ، الطبعة الإولى ، عيسى البابي الحلبي .

٣٠ ـ السكاكي ، الإمام أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي ، مفتاح العلوم ، القسم الثاني ، طبع مطبعة التقدم العلمية بمصر ، الدار السلفية ، الكويت، ١٩٨٦ م .

٣١ ـ السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) ، الإتقان في علوم القرآن ـ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٣٢ ـ السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ، تحقيق محمد احمد جاد المولى وعلي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الجليل ، بيروت ، دار الفكر ، بيروت .

٣٣ ـ الإمام الشافعي ، محمد بن إدريس ، الرسالة ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الأولى ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٩ م.

٣٤ ـ الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، نشر مطبعة البابي الحلبي القاهرة ، ١٩٦١ م.

٥٤ ـ أبو شامة ، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، نشر وتحقيق محمد حلمي محمد احمد ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ م .

٣٦ ـ الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ج ٤ ، الطبعة الثانية ، دار فرانز شتاينر قرب بادن ، ١٩٦٢ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٧ - أبو طالب المكي ، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، القاهـــــــــرة ، ١٩٣٣ م ، ج ١ .

٣٨ - الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، الجزء الأول .

٣٩ ـ العباس بن الأحنف ، ديوان العباس بن الأحنف ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨ م.

٤٠ - القاضي عبد الجبار بن احمد الهمذاني ، متشابه القرآن ، القسم الأول والقسم الثاني، تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور ، دار التراث .

٤١ - القاضي عبد الجبار بن احمد الهمذاني ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق محمد مصطفى حلمي وآخرون ، بإشراف طه حسين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .

٤٢ - أبو الحسن عبد العزيز بن يحيى الكناني ، الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن ، حققه وعلق عليه د . علي بن محمد بن ناصر الفقيهي .

٤٣ - عبد القاهر البغدادي ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي البغدادي ، الفرق بين الفرق ، الطبعة الرابعة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٤ - عبد القاهر الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحح أصله الاستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي ،وعلق حواشيه محمد رشيد رضا ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٨ م .

٤٥ - عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، صححها على نسخة الأستاذ الشيخ محمد عبده السيد محمد رشيد رضا دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٤٦ - ابن عربي ، محيي الدين (ت ٦٣٨ هـ) ، تفسير القرآن الكريم ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٨ م .

٤٧ - علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (٧٣١ هـ ـ ٧٩٢ هـ) ، مختصر شرح العقيدة الطحاوية ، اختصره بعض العلماء وحققه محمد ناصر الدين الألباني ، دار عمر بن الخطاب للطباعاة والنشر والتوزيع بالإسكندرية .

٤٨- الإمام الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٠٥ هـ) ، المستصفى في أصول الفقه ، ج١ ، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣ م .

٤٩ - ابن فارس ، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق د. مصطفى الشويمي ، طبع ونشر مؤسسة أ ـ بدران للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٣ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٠ - ابن قاضي شهبة ، أبو بكر محمد بن احمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين الدمشقي ، طبقات الشافعية ج ٢ تحقيق الدكتور الحافظ عبد العليم خان ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد والدكن ، الهند ، ١٩٧٩ م .

٥١ - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٦ م ج ٢ ، ٥ ، ١٤ .

٥٢ - الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠ هـ) ، الأحكام السلطانية ، عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعاني الحلبي ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٠٩ م .

٥٣ - النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٧ ، تحقيق د . سعيد عاشور ، مراجعة محمد مصطفى زيادة والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد .

٥٤ - القاضي النعمان ، ابن حيون أبو حنيفة بن محمد بن منصور ، أساس التأويل ، تحقيق عارف تامر ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٠ م .

٥٥ - الشيخ هود بن محكم الهواري ، تفسير كتاب الله العزيز ، حققه وعلق عليه بالحاج سعيد شريفي ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٦ - ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

٥٧ - يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت ٧٤٧ هـ) ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الجزء الأول ، ١٩٨٢ م .

﴿ ٢ ﴾

٥٨ - د . أحمد حماد ، العلاقة بين اللغة والفكر ، ١٩٨٥ .

٥٩ - بكير بن سعيد أعوشت ؛ دراسات إسلامية في الأصول الإباضية / الطبعة الرابعة .

٦٠ - تشومسكي ، نوم تشومسكي ، محاضرات ودن (تأملات في اللغة) ، ترجمة د . مرتضى جواد باقر و د. عبد الجبار محمد علي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠ م .

٦١ - تشومسكي ، البنى النحوية ، ترجمة د . يؤيل يوسف عزيز ، مراجعة مجيد الماشطة ،الطبعة الأولى ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٢ - التهامي الراجي الهاشمي ، توطئة لدراسة علم اللغة ، التعاريف ، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد ، دار النشر المغربية .

٦٣ - د . تمام حسّان ، مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ م .

٦٤ - جورج بولتز وجي بيس وموريس كافين ، أصول الفلسفة الماركسية ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

٦٥ - جان بياجيه ، اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة أحمد عزت راجح مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٦ .

٦٦ - جون ليونز ، نظرية تشومسكي اللغوية ، ترجمة وتعليق د . حلمي خليل ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية .

٦٧ - د . جعفر دك الباب ، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني (نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث) ، الطبعة الأولى ، دمشق ، مطبعة الجليل ، ١٩٨٠ م .

٦٨ - جوزيف فندريس ، اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٠م .

٦٩- دي سوسير ، فريدناند ، محاضرات في الألسنية العامة ، ترجمة يوسف غازي مجيد النصر ، دار النعمان للثقافة ، جونية ، لبنان .

٧٠- الزركان ، محمد صالح الزركان ، فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٣ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧١ - السامرائي ، صالح مهدي السامرائي ، المجاز في البلاغة العربية ، الطبعة الأولى ، دار الدعوة ، حماة ، سورية ، ١٩٨١ م .

٧٢ - د . سيد أحمد عبد الغفار ، التصور اللغوي عند الأصوليين الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨١ م .

٧٣ - د . سيد احمد عبد الغفار ، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ،الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية .

٧٤ - ستيفان أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة وتقديم وتعليق د. كمال محمد بشر الطبعة الثالثة ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

٧٥ - سعيد بن سعيد العلوي ، الخطاب الأشعري ، الطبعة الأولى ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢ م .

٧٦ - د . سفر الحوالي ، منهج الأشاعرة في العقيدة ، الطبعة الأولى ، الدار السلفية ، الكويت ، ١٩٨٦ م .

٧٧ - طلال يحي الطوبجي ، " الرازي النحوي من خلال تفسيره " ، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، العراق .

٧٨ - الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي ، المراجعات ، دار علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

٧٩ - عبد الرحمن ياغي ، رأي في المقامات ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٠ - عبد الصبور شاهين ، علم اللغة العام، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ م .

٨٢ - عبد العظيم ابراهيم المطعني ، المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ م .

٨٣ - عبد القادر المهيري وحمادي صمود وعبد السلام المسدي ، النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص ، تونس ، الدار التونسية ، ١٩٨٨ م .

٨٤ - د . عثمان أمين ، في اللغة والفكر ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الجامعة العربية ، القاهرة .

٨٥ - د. عبده الراجحي ، النحو العربي والدرس الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ م .

٨٦ - د. عبد ه الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

٨٧ - د. عبده الراجحي ، علم اللغة الاجتماعي ، نسخة مصورة ، مقدمة من المؤلف .

٨٨ - د. محمد بدري عبد الجليل ، المجاز وأثره في الدرس اللغوي ، الإسكندرية ، دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٥ م .

٨٩ - د . محمد شحرور ، الكتاب والقرآن (قراءة معاصرة) ، الطبعة الخامسة ، دار الأهالي ، دمشق .

٩٠ - ماهر مهدي هلال ، فخر الدين الرازي بلاغيا ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩١ - د. محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، الطبعة الثالثة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، أيار مايو ١٩٩٠م .

٩٢ - د. محمد رياض العشيري ، التصور اللغوي عند الإسماعيلية ، دراسة في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٥ م .

٩٣ - د. محمود السعران ، علم اللغة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ م .

٩٤ - محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

٩٥ - د. مصطفى مندور ، اللغة بين العقل والمغامرة ، منشأة المعارف بالإسكندرية .

٩٦ - د. موفق الحمداني ، اللغة وعلم النفس ،الجمهورية العراقية ، وزارة التعليم العالي .

٩٧ - د. ميشال زكريا ، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية ، (النظرية الألسنية) الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢ م .

٩٨ - د. مازن الوعر ، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، الطبعة الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٨ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٩٦٦٢٩

٩٩ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، الطبعة الأولى ، دار الحديث ، القاهرة ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ م .

١٠٠ - محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ م .

١٠١ - د. نوري جعفر ، اللغة والفكر ، الرباط ، مكتبة التومي ، شارع محمد الخامس ١٩٧١ م .

١٠٢ ــ هنري لوفيفر ، اللسان والمجتمع ، ترجمة د. مصطفى صالح ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٣م.

١٠٣ - د. إي . ونستك ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مكتبة بريل في مدينة بادن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

including the paragraph, the text, and a group of texts which he considered as one unit as it is the case in the chapters of the Holy Quran . In addition, I have clarified that Al-Razi has a view similar to that of Al-Jurjani in saying that metaphorical speech can be achieved when there is co-ordination between thought and language, i.e., between the cluster of meanings and that of form in the Arabic sentence. For Al-Razi, this is the essence of the expression of challenge in the Quran.

I have also dealt with the context, the register, and meaning and have pointed out, that to Al-Razi, the meaning of an Arabic sentence is derived form both form and meaning, in addition to the social, political, and cultural registers.

In the third chapter I have discussed the importance of language and its role for the scientists of Osoul Al-Fiqh. I have also pointed the special attention the Asha'irah paid to language, especially Imam Fakhr Al-Razi who indicates that Allah is not going to include speech, literal or intended, that cannot be understood by Arabs. Imam Fakhr also emphasized that the understanding of a Quranic text is correct if the interpretation is agreed upon by Arabs in general. He added that the correct meaning with respect to words and syntax is the one that agrees with the rules of the language.

Imam Al-Razi leant towards a creative combination between mind and text. He considered the text as the basis, for one has to stick to the literary meaning as much as possible and that consideration of the intended meaning should be limited within the rules of the language. Therefore, he reinterpreted the verses interpreted by the Batiniyyah within this framework and rejected their explanations that transcend the limits of the language. Finally, I have shown the influence of Al-Razi's views about language on his philosophy and presented the explanation for the Quranic verses that reveal this influence.

In the conclusion, I have presented the results of the study. The major points are summarized below. First, Al-Razi has a special perception of language that can be considered as a general framework for a linguistic theory and the effect of his

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

perception on his logical concepts was common and deep. Secondly, there might be different points of view in the interpretation of a text such as a Quranic text, and consequently, will lead to variations in the concepts among the islamic groups. These differences are usually based on the different views they have concerning language. These differences can be attributed to the depth of expression of the Quranic text. Thirdly, those groups that based their interpretations either on the literal or intended meanings have their rationale, however, those groups that base their interpretations on nonlinguistic factors, but on the attributes of Allah mentioned in the Quran compared to attributes of Man have gone too far in their interpretations. Such groups controlled the language in a way that contradicts its nature; and therefore, they are far from being correct.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit